أثر تصور الله

في سلوك الأفراد

دراسة نفسية اجتماعية

جمال الشامي

أثر تصور الله

في سلوك الأفراد

دراسة نفسية اجتماعية

جمال الشامي

النسخة الأولى

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

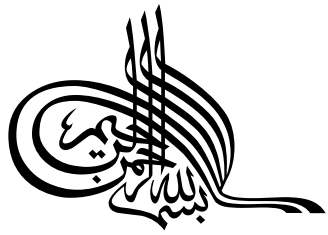

المقدمة

تمثّل صورة الإله أحد أكثر المفاهيم تأثيراً في النفس البشرية، فهي لا تشكّل فقط إطاراً عقائدياً لدى المتدين، بل تعبّر عن وعيه الوجداني والأخلاقي، وتنعكس على سلوكه الفردي والاجتماعي بشكل مباشر أو غير مباشر، وفي علم النفس الديني، يميّز الباحثون بين "مفهوم الإله" الذي يتشكل معرفياً وعقلياً، و"صورة الإله" التي تنمو وجدانياً ونفسياً داخل الفرد، وتتأثر بعوامل تربوية وثقافية وتجريبية.

وقد بيّنت الأبحاث النفسية الحديثة أن صورة الإنسان عن الله تؤثر بعمق في صحته النفسية، واستقراره الأخلاقي، وشعوره بالذنب أو الراحة، كما أنها تُعدّ مؤشراً على نوعية العلاقة التي يقيمها الفرد مع ذاته ومع الآخر، وعلى المستوى الاجتماعي، تلعب هذه الصورة دوراً محورياً في تشكيل القيم السائدة، والنظرة إلى القانون والعدالة والسلطة.

وتتجلى خطورة "التصورات المشوّهة عن الله" حينما تصبح مبرراً لسلوكيات منحرفة دينياً أو أخلاقياً أو سياسياً، كما هو الحال في مجتمعات تعاني من الجمود العقائدي، أو الاستبداد الديني، أو التقديس الأعمى للأشخاص، وقد عرضنا في كتاب "الجهل بالله وأثره في السلوك العملي للمتدين"[1] نماذج عديدة لهذه التصورات، التي تعتبر في جوهرها صوراً سلبية للإله تؤثر في السلوك الديني.

(١) منشور على الإنترنت.

تنطلق هذه الدراسة للإجابة على سؤال رئيسي: كيف تؤثر التصورات السلبية عن الله على سلوك الأفراد والمجتمعات؟ وما هي الآثار النفسية والاجتماعية المترتبة عليها؟ وكيف يمكن تصحيح هذه التصورات بما يضمن التوازن الديني والنفسي والاجتماعي؟

ولتحقيق ذلك، ستعتمد الدراسة على تحليل يجمع بين علم النفس الديني والسوسيولوجيا الدينية، مع الاستعانة بالنصوص التراثية والنقدية في الفكر الإسلامي، بهدف تحليل هذه التصورات، وتحديد آثارها، واقتراح بدائل بناءة تستند إلى مفاهيم إيمانية صحيحة.

جمال الشامي

٥ ذو الحجة ١٤٤٦هـ

١/ ٦/ ٢٠٢٥م

المبحث الأول
مفهوم التصورات الدينية عن اللّه وأنواعها

يُعدّ تصور الإنسان عن الله من أخطر وأعمق المفاهيم التي تشكّل أساس التدين والسلوك الديني، بل وينعكس هذا التصور على مجمل الرؤية الوجودية للإنسان، فالمقصود به ليس مجرد الإيمان بوجود الله أو معرفة أسمائه وصفاته نظرياً، بل الكيفية التي يتخيّله بها الإنسان، ويتفاعل معه شعورياً وسلوكياً، وهذه الصورة الذهنية – سواء كانت واضحة أم ضمنية، صحيحة أم مشوهة – تؤثر بشكل مباشر في علاقة الإنسان بربه، وفي فهمه للعبادة، وفي نظرته للناس، بل حتى في مزاجه النفسي وأسلوب حياته.

في هذا المبحث نتناول مفهوم التصور الديني عن الله، من خلال تحليل العوامل النفسية والمعرفية التي تسهم في نشوئه وتكوينه داخل النفس البشرية، ثم نبيّن أثر التصور الصحيح في بناء تدين متوازن وسلوك أخلاقي سليم، قبل أن نستعرض أبرز التصورات الخاطئة الشائعة، وما تخلّفه من اضطراب ديني وسلوكي.

المطلب الأول: معنى تصور الإنسان عن الله:

تصور الإنسان عن الله لا يقتصر على المعرفة العقلية بصفاته، بل يشمل منظومة متداخلة من الصور الذهنية والانفعالات الشعورية التي يحملها تجاهه، مثل تصوره لرحمته وعدله وقدرته، وهذا التصور ليس بنية بسيطة، بل بناء ذهني معقّد يتشكّل

عبر تفاعلات معرفية ونفسية متعددة، وينعكس بعمق على سلوك الإنسان، وعلاقته بنفسه وبالناس وبالوجود من حوله.

ويتشكّل هذا التصور من عدة عناصر متداخلة:

١- المعارف الدينية الملقّنة أو المكتسبة: وهي المعلومات والتعاليم التي يتلقاها الفرد من مصادر دينية رسمية (كالكتب المقدسة، والخطب الدينية، والدروس التعليمية) أو غير رسمية (كالوالدين، والأقارب، والأصدقاء)، وهذه المعارف تشكل الأساس المعرفي للتصور، ولكنها لا تحدده بشكل كامل، إذ تخضع للتفسير والتأويل.

٢- الخبرات الحياتية، خاصة في الطفولة المبكرة: تعتبر الطفولة مرحلة حرجة في تشكيل التصور عن الله، فالطفل يميل إلى تجسيد المفاهيم المجردة، وبالتالي فإن الطريقة التي يعيش بها الطفل علاقته بوالديه أو بمن يمثلون له سلطة الأبوة (كالجدين أو الأشقاء الأكبر) تؤثر بشكل كبير في تصوره عن الله، فإذا كان الطفل يشعر بالأمان والحب والعدل من قبل والديه، فمن المرجح أن يتصور الله على أنه رحيم ومحب وعادل، والعكس صحيح.

٣- الخطاب الديني والإعلامي الموجه: يلعب الخطاب الديني والإعلامي دوراً هاماً في تشكيل وتوجيه التصورات عن الله، فالخطاب الذي يركز على تشبيه الله بصفات محدثة كصفات الإنسان يؤدي إلى تصور بشري لله، بينما الخطاب الذي يركز على تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين، يعزز تعظيمه وتنزيهه عن صفات النقص.

٤- النمط التربوي داخل الأسرة: الطريقة التي تربي بها الأسرة أبناءها على القيم الدينية والأخلاقية تؤثر بشكل كبير في تصورهم عن الله، فالأسرة التي تشجع على التفكير النقدي والحوار الديني قد تساعد أبناءها على تكوين تصور أكثر نضجاً وتوازنًا عن الله، بينما الأسرة التي تفرض عليهم تصورات معينة دون نقاش قد تؤدي إلى تصورات سطحية أو مشوهة.

٥- العوامل الثقافية والاجتماعية: تؤثر الثقافة والمجتمع الذي يعيش فيه الفرد في تصوره عن الله، فالقيم والمعتقدات السائدة في المجتمع يمكن أن تشكل تصورات مسبقة عن الله، والتي قد تكون إيجابية أو سلبية.

المطلب الثاني: أهمية التصور الصحيح عن الله:

إن التصور الصحيح عن الله ليس مجرد مسألة عقائدية، بل هو أساس الصحة النفسية والسلوكية للإنسان، وقد أثبتت دراسات علم النفس الديني أن الإنسان الذي يرى الله قريباً، رحيماً، يستجيب لدعائه، يشعر بمزيد من الأمان الداخلي، والانضباط الذاتي، والتفاؤل، وهذا التصور يعزز الشعور بالمعنى والهدف في الحياة، ويساعد على التغلب على الصعاب والتحديات.

بينما الإنسان الذي يرى الله منتقماً قاسياً دائم المراقبة والمحاسبة، تزداد فيه مشاعر الخوف المَرَضي، أو يميل إلى التواكل، أو يبرر العنف باعتباره إرادة إلهية، وهذا التصور يمكن أن يؤدي إلى القلق والاكتئاب واليأس، ويضعف الشعور بالمسؤولية الأخلاقية[1].

(١) علم نفس الدين ص١٥٥-١٥٦.

وقد تناولت النصوص الإسلامية هذا التصور الإلهي بدقة، مؤكدة أن معرفة الله لا تتم بالتشبيه أو التحديد، بل بالتنزيه والتعظيم، وفي هذا السياق، عبّر الإمام علي عليه السلام عن جوهر التوحيد والتنزيه الإلهي بقوله: "مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلَا صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَ تَوَهَّمَهُ"(١)، هذه المقولة العظيمة تلخص جوهر التصور الصحيح عن الله، وهو التنزيه عن التشبه بالمخلوقات، وعدم محاولة تحديد ذاته بصفات بشرية، والاعتراف بعظمته وجلاله.

فالتصور الصحيح يركز على صفات الله الذاتية (كالقدرة المطلقة، والعلم المطلق، والإرادة المطلقة) وصفاته الفعلية (كالرحمة، والعدل، والحكمة)، مع التأكيد على أن هذه الصفات لا تشبه صفات المخلوقات.

المطلب الثالث: أنواع التصورات الخاطئة الشائعة عن الله:

في البيئة الدينية التقليدية، تنتشر مجموعة من التصورات المشوّهة عن الله، والتي يمكن أن يكون لها آثار سلبية على حياة الأفراد والمجتمعات، من أبرز هذه التصورات:

الفرع الأول: التصوّر القاسي عن الله:

يرى بعض المتدينين الله كمنتقم مترصّد لكل زلة، يركّز على العقاب أكثر من الرحمة أو المكافأة، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ**

(١) نهج البلاغة ج٣ص١١٩.

﴿تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنعام:٥٤]، ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الزمر:٥٣]، ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الحجر:٤٩].

الأثر:

- خوف دائم من الله.
- أداء العبادات بدافع الخوف لا الاستحقاق.
- شعور بالدونية.
- فقدان الثقة بالنفس.
- صعوبة في تحقيق السلام الداخلي.

الفرع الثاني: التصوّر المتساهل عن الله:

يتصور الله كمن لا يعاقب ولا يحاسب، يغفر كل شيء دون شروط، ولا يفرض مسؤولية أخلاقية على الإنسان، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١]، ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف:١٦٩]، ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٨٠].

الأثر:

- التهاون في أداء العبادات.
- تبرير المعاصي.

- غياب الشعور بالمسؤولية.
- فقدان الدافع للعمل الصالح.
- انحلال أخلاقي.

الفرع الثالث: التصوّر المجسّم لله:

ينظر إلى الله وكأنه إنسان؛ يفرح، يغضب، يتغيّر، يُخدع، وينسب إليه الأعضاء والمكان، قال تعالى: ﴿**يُخَادِعُونَ اللَّه وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾[البقرة:٩]، ﴿**فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ**﴾[النساء:١٥٣].

الأثر:

- تشويه مفهوم التوحيد.
- تسطيح العلاقة مع الله.
- إسقاط صفات بشرية على الإله.
- فقدان الرهبة من الله.
- تقليل من شأن العبادة.

الفرع الرابع: التصوّر البعيد عن الله:

يرى الله ككائن غير متدخل، لا يسمع، ولا يهتم، أو أنه مشغول عن الإنسان ولا يستجيب للدعاء، قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ**﴾[الجاثية:٢٤]، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ**﴾[يونس:٧].

الأثر:

- اليأس والقلق الوجودي.
- فقدان الدافع الروحي.
- الشعور بالوحدة والعزلة.
- ضعف اللجوء إلى الله وقت الشدة.

الفرع الخامس: التصوّر السياسي لله:

يستغل اسم الله لتبرير سياسات، وحروب، وطائفية، وتحزّبات، ويستخدم كأداة لتحقيق أهداف دنيوية، قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً**﴾ [النحل:٩٥]، ﴿**وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى**﴾[النحل:٦٢]، ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً**﴾[البقرة:٧٩].

الأثر:

- التعصّب الديني.
- الكراهية والعنف باسم الدين.
- تبرير الظلم والاضطهاد.
- تشويه صورة الدين.
- إبعاد الناس عن الإيمان.

الفرع السادس: التصوّر النفعي لله:

يختزل العلاقة بالله في طلب الحاجات فقط، وعند تحقق المصالح ينسى، فلا يذكر في الرخاء، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ**﴾[الزمر:٨].

الأثر:

- علاقة سطحية بالله.
- غياب الإخلاص في العبادة.
- ضعف الشعور بالامتنان.

هذه التصورات، حتى وإن لم يعبّر عنها بوضوح، تسكن في اللاوعي الديني للناس، وتشكّل نوع التدين الذي يظهر في السلوك اليومي، من الصلاة إلى الحكم على الآخرين، إلى الموقف من المخالفين، ولذلك، من الضروري العمل على تصحيح هذه التصورات، وتعزيز التصور الصحيح عن الله، من خلال التعليم الديني السليم، والتفكير النقدي، والحوار المفتوح، والتجربة الروحية الصادقة، فإن بناء علاقة صحية مع الله يبدأ بتكوين صورة صحيحة عنه في ذهننا وقلوبنا.

المبحث الثاني
التصور الخاطئ للّه وآثاره النفسية والاجتماعية

ليست جميع التصورات عن الله متساوية في أثرها، بل بعضها يؤدي إلى انحراف عميق في البنية النفسية والدينية للإنسان، فحين تتشوه صورة الله في وعي الفرد أو الجماعة – سواء بالتجسيم، أو الجبر، أو التسيب، أو الفهم المشوَّه للرحمة والشفاعة – فإن نتائج ذلك لا تقف عند حدود الاعتقاد، بل تمتد إلى السلوك، والعلاقات، والهوية، والتفاعل مع المجتمع.

وفي هذا المبحث، نسلط الضوء على أبرز وجوه التصور الخاطئ لله، ونحلل أثر كل نمط منها على النفس من حيث الصحة النفسية، والشعور بالذنب، ومستوى الدافعية، وضبط الضمير، كما نرصد الامتداد الاجتماعي لهذه التصورات، من شرعنة الاستبداد، وتفريغ الدين من محتواه الأخلاقي، إلى ترسيخ ثقافة التواكل والفساد، وتآكل مفهوم العدالة والجزاء.

والمقاربة هنا ليست وعظية، بل تحليلية واقعية، تضع اليد على الجذر العقدي للأزمة النفسية والاجتماعية، وتوضح كيف يؤدي الفهم الخاطئ للإله إلى بناء فرد مهزوز أو مجتمع مشلول، لا يملك مسؤولية، ولا يصنع نهضة.

المطلب الأول: أوجه التصور الخاطئ لله وآثارها النفسية:

الفرع الأول: تشبيه الله بالمخلوقين (التجسيم والتمثيل):

المسألة الأول: المقصود بتشبيه الله بالمخلوقين:

هو تصور الله بصفات بشرية حسّية أو جسدية، مثل أن يكون له يد[١]، أو وجه[٢]، أو أن "يجلس"[٣] أو "يأتي ويجيء"[٤]، أو يُتخيَّل على شكل شاب أمرد[٥]، أو يُتصور أنه "يضحك"[٦] أو "يتعجب"[٧] أو أن له "مكان"[٨] كما للبشر.

هذا التصوّر لا يصرّح به كثير من الناس علناً، لكنه يتسرّب إلى الذهن من خلال عبارات شائعة مثل: "الله له يد حقيقية، كما أخبر عن نفسه، لكن لا نعرف كيف"، "الله يجلس على العرش، كما يجلس الملك على عرشه"، "الله في السماء، يجيء ويذهب ويضحك، كما ورد في الأحاديث"، أو حين يقال للأطفال: "الله فوقك ينظر إليك..."، دون تفصيل، كما يظهر أيضاً في الرسومات أو القصص التي تصوّر الله على هيئة بشرية، أو كشيخ له لحية بيضاء فوق السحاب.

وهذه العبارات، إذا فُهمت على ظاهرها الحرفي دون تنزيه أو تأويل، تغرس صورة لله شبيهة بالمخلوقين، حتى وإن لم يصرّح بذلك مباشرة.

---

(١) شرح العقيدة السفارينية لابن عثيمين ص١٠٧.
(٢) اعتقاد أئمة الحديث للجرجاني ص٥٥.
(٣) السنة لعبد الله بن أحمد ج١ ص٣٠١.
(٤) شرح العقيدة الواسطية للهراس ص١١٢.
(٥) بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية ج٧ص٢٢٤-٢٢٨.
(٦) صحيح البخاري ج٤ص٢٤.
(٧) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين ج٥ص٣٢.
(٨) العلو للعلي الغفار للذهبي ص١٣٦.

المسألة الثانية: جذور هذا التصوّر:

- الفهم الحرفي للنصوص الدينية، مثل: ﴿**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ [الفتح:١٠]، ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾[طه:٥]، من غير توضيح لمراد النص أو تأويله بما يليق بالله.

- الإسقاط النفسي، حيث يسقط الطفل أو البالغ صفات الأب أو الحاكم أو المعلم على صورة الله، خصوصاً في غياب توجيه عقدي مبكر.

- الخطاب الديني غير المنزّه، الذي يستخدم تعبيرات تجسيمية دون تفريق بين اللفظ القرآني والمعنى البشري.

- التأثر بتراث كلامي مائل للتجسيم، تسلل إلى الوعي الشعبي دون نقد أو تمييز.

- ضعف التربية العقدية، وغياب تعليم مبكر لقاعدة: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[الشورى:١١]، وغياب الحسّ اللغوي في فهم النصوص المتشابهة.

المسألة الثالثة: أمثلة على هذا التصور الخاطئ:

- الطفل الذي يتخيل الله كشيخ له لحية بيضاء يجلس على عرش في السماء، هذا شائع عند الأطفال في بعض البيئات، ويتكون بفعل القصص، أو الرسوم، أو كلام الكبار، فيكبر الطفل أحياناً وهو محتفظ بهذا التصور، وإن لم يعبّر عنه علناً.

- بعض الخطباء أو المعلمين الذين يصفون الله بعبارات تشبه صفات البشر: "الله في السماء"(١)، "يَنْزِلُ اللهُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا لِشَطْرِ اللَّيْلِ، أَوْ لِثُلُثِ اللَّيْلِ الْآخِرِ"(٢) هذه العبارات، إن فُهمت حرفياً دون تأويل أو تنزيه، تخلق صورة ذهنية مادية لله.

- رؤية بعض الناس في المنام لله على هيئة إنسان، ثم اعتبار هذه الرؤية "حقيقية"، وهي تجربة ذات أثر نفسي كبير، لكن تفسيرها حرفياً يؤدي إلى تشويه في التصور العقدي.

المسألة الرابعة: الأثر النفسي لهذا التصور:

١. انحدار صورة الإله من مقام التسامي إلى المألوف: حين يُتصوَّر الله بصورة بشرية، يفقد "سموّه" في النفس، ويصبح مشابهاً لمخلوقات يمكن استيعابها بسهولة، وهذا يضعف الشعور بالتعظيم والخشوع، ويحوّل العلاقة من رهبة وتقديس إلى تعامل بسيط وأحياناً ساذج.

٢. التعامل مع الله كمخلوق يمكن خداعه أو مساومته: إذا تصوّر الشخص أن الله "يشبهنا"، فقد يظن أنه يمكن "إرضاؤه" ببعض الأعمال الشكلية أو الالتفاف حول أوامره كما نفعل مع البشر.

مثال: من يصلي بخشوع شكلي وهو يظن أن الله سـ"يُخدع" بمظهره، أو من يقاتل لأجل المال بدعوى الجهاد ويظن أن الله سـ"يُخدع" بدعواه.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ج٣٩ص١٨٢.
(٢) صحيح مسلم ج١ ص٥٢٢.

٣. اضطرابات دينية:

أ. الوسواس القهري الديني (Religious OCD): من يصور الله ككائن دقيق الملاحظة جداً كما يفعل البشر، قد يصاب بوساوس في الطهارة أو النية أو العقيدة، لأنه يتخيل أن الله "يتصيّد الأخطاء".

مثلًا: شخص يعيد الوضوء عشرات المرات لأنه يظن أن الله سيحسب عليه ذنباً إن أخطأ ولو بقدر يسير.

ب. التمرد اللاشعوري على الدين: حين يتخيل الإنسان أن الله يتصرف كما يتصرف الأب القاسي أو الزعيم المستبد، تتولد داخله مقاومة غير معلنة، لأنه يشعر بالظلم أو الضيق.

ويظهر هذا التمرد في السخرية من بعض الأحكام أو النفور من العبادات دون سبب ظاهر.

المسألة الخامسة: التحليل النفسي العميق:

في علم النفس، تعرف هذه الحالة باسم "الإسقاط الأنثروبولوجي" (Anthropomorphism)، أي: إسقاط خصائص الإنسان على الكيانات غير البشرية، وغالباً ما يكون هذا ناتجاً عن نمط العلاقة مع الأب أو السلطة في الطفولة:

- إذا كان الأب صارماً أو متقلباً، فقد يُسقط الطفل صفات هذا الأب على الله.

- وإذا كانت صورة السلطة قاسية، فقد يرى الله كإله منتقم أو متقلب أو "يعاقب دون إنذار".

– وإذا كان رجل الدين متناقضاً أو فاسداً أو متساهلاً مع الخطأ، يبدأ الإنسان – خصوصاً من يراقب هذه التناقضات – بإسقاط فكرة أن الله لا يهتم فعلياً، أو أنه "ينتقي متى يعاقب ومتى يتغاضى".

المسألة السادسة: العلاج أو التصحيح المقترح:

– تعزيز التنزيه في التربية العقدية منذ الصغر: عبر تعليم أن الله "ليس كمثله شيء"، وأن صفات الله لا تشبه صفات المخلوقين، مهما تقاطعت الألفاظ، فالتفريق بين ظاهر النصوص ومعناها: أن نقول مثلاً: "اليد" في القرآن لا تعني يداً جسدية، بل تعني قدرة الله ونعمته.

– ربط صفات الله بالقيم العليا: كأن نركز على أن الله "عليم" أي يعلم كل شيء برحمة، و"قدير" لا يعني متجبراً بل حكيماً في قدرته.

الفرع الثاني: تصور الله كإله متساهل لا يعاقب:

المسألة الأولى: معنى التصور:

يتبنى بعض الناس تصوراً شعورياً – وليس دائماً اعتقاداً معلناً – بأن الله رحيم بشكل يجعل العقوبة مستبعدة أو مستحيلة، حتى مع استمرار الذنوب والمعاصي.

وهذا التصور لا ينكر العقاب نظرياً، لكنه يضعف أثره النفسي في الضمير، وينتج حالة من الاسترخاء الأخلاقي تحت غطاء "سعة الرحمة".

"الله غفور رحيم... لن يعذبنا مهما فعلنا ما دمنا موحدين" – عبارة شائعة تختصر هذا النمط.

المسألة الثانية: جذور هذا التصور:

- خطاب ديني مفرط في التركيز على الرحمة، دون بيان حدودها وشروطها، مما ينتج صورة ناقصة لله.

- سوء فهم لآيات المغفرة، مثل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾[النساء:٤٨]، دون الانتباه للشروط.

- روايات منتشرة دون تحقق، مثل: "من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق"(١)، والتي تفهم خارج سياقها.

- حاجة نفسية دفاعية، حيث يقلل الشخص من أهمية العقاب كطريقة لخفض القلق أو الذنب.

- ضعف التربية على المسؤولية الفردية، مما يجعل فكرة "العفو الشامل" مريحة نفسياً وسهلة التبني.

المسألة الثالثة: أمثلة واقعية على هذا التصور:

- شخص يكثر من المعاصي لكنه يقول: "الله رحيم، سيغفر لنا مهما فعلنا"(٢)، يقول ذلك كتبرير للتأجيل المستمر للتوبة أو الاستهانة بالمحاسبة.

- بعض الخطباء أو البرامج الدينية التي تركز فقط على الرحمة وتهمل ذكر العدل والجزاء، ينتج عن ذلك شعور غير متوازن بالطمأنينة قد يؤدي إلى التراخي الروحي.

---

(١) صحيح البخاري ج٧ص١٤٩.
(٢) ﴿**وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا**﴾[الأعراف:١٦٩].

- شخص يربط المغفرة تلقائياً ببعض الطقوس الشكلية، مثل من يرتكب ذنوباً جسيمة ثم يقول: "سأذهب للحج[١]، أو أصوم عرفة[٢] أو عاشوراء[٣] وسيمحى كل شيء"، دون نية صادقة للتوبة.

المسألة الرابعة: الأثر النفسي:

١. الاسترخاء السلوكي (Behavioral Relaxation): يتوقف الفرد عن محاسبة نفسه، لأنه لا يرى الحاجة إلى المجاهدة أو الانضباط، فيتعامل مع الذنب كما لو كان "مغفوراً سلفاً"، مما يؤدي إلى ضعف الإرادة وفتور التوبة.

٢. التقليل من الذنب وتأجيل التوبة: يبرر الشخص أفعاله بقوله: "ما زلت صغيراً"، أو "سأتوب لاحقاً"، ويظل في دائرة التأجيل، وهذا ينتج نوعاً من "الاعتياد الأخلاقي" على الخطأ، فيفقد الشعور بالخطر المعنوي.

٣. ضعف الضمير الأخلاقي: الضمير أو ما يسميه علماء النفس "الرقابة الداخلية" يتغذى على الإحساس بالمسؤولية والمحاسبة، فعند غياب فكرة العقوبة العادلة، يصاب الضمير بالخمول، فيصبح الإنسان أقل حساسية تجاه الخطأ.

المسألة الخامسة: التحليل النفسي:

في علم النفس، هذا النمط يشبه آلية "التبرير الدفاعي" (Defensive Rationalization): حيث يبرر الفرد سلوكاً غير مقبول دينياً أو أخلاقياً بانتقاء جانب مريح من العقيدة.

---

(١) صحيح البخاري ج٣ص١١.
(٢) صحيح مسلم ج٢ص٨١٨.
(٣) سنن الترمذي ج٣ص١١٧.

وأحياناً يستخدم أيضاً كنوع من "التعويض": فالشخص الذي يشعر بالذنب الشديد قد يواسي نفسه بفكرة "الله لن يعاقبني"، كوسيلة لخفض التوتر.

المسألة السادسة: الأثر الاجتماعي الأوسع:

انتشار هذا التصور في المجتمع يؤدي إلى:

١. ظاهرة "التدين الانتقائي": التزام شكلي بالعبادات مع استهانة واضحة بالقيم والأخلاق.

٢. ضعف في الحزم الجماعي تجاه الظلم والفساد، لأن الجميع "يراهن على الرحمة".

٣. تشويه في صورة الله كـ "رب لا يحاسب"، مما يخلق انفصالاً بين الدين والمحاسبة.

المسألة السابعة: التصحيح والعلاج التربوي:

- إبراز التوازن بين الرحمة والعدل في صورة الله، مثلاً: في القرآن غالباً ما تُذكر "غفور رحيم" بجانب "شديد العقاب" لإحداث توازن شعوري، ﴿**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ**﴾[الحجر:٥٠]

- تعليم أن الرحمة لا تعني الفوضى، بل هي مشروطة بالتوبة والإصلاح، ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ**﴾[الأعراف:١٥٦].

- تعزيز الشعور بالمسؤولية الشخصية، من خلال الحديث عن أن كل إنسان محاسب على عمله، وأن الله لا يظلم أحداً، ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى**﴾ [النجم:٣٩]، ﴿**إِنَّ اللَّه لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً**﴾[يونس:٤٤].

وبناء على ما سبق، فتصوّر الله كإله متساهل لا يعاقب ينتج علاقة غير صحية مع الدين، فيفقد الإيمان بُعده الأخلاقي، ويضعف التحفيز للتوبة والتحسين.

والتصور السليم لله يجمع بين الرجاء والخوف، وبين الرحمة والعدل، وهو ما ينتج التوازن النفسي، ويفعّل الضمير، ويقود إلى التوبة النشطة لا التواكل.

الفرع الثالث: تصور الجبر ونفي الإرادة الإنسانية:

المسألة الأولى: معنى التصور:

تصوّر الجبر: يعني الاعتقاد بأن الإنسان لا يملك إرادة حقيقية في أفعاله، وأن كل ما يفعله – من خير أو شر – مكتوب عليه مسبقاً ولا يمكن تغييره أو الهروب منه.

وفي هذا التصور، يصبح الإنسان كآلة تسيَّر وفق سيناريو محتوم، ولا معنى للاختيار، أو المسؤولية، أو الثواب والعقاب.

ولا يُصرَّح به غالباً بصيغة عقدية صريحة، لكنه يظهر في عبارات شائعة مثل: "كل شيء مكتوب[١]، فعلاما أُحاسَب"، "الله هو الذي قدّر عليّ هذا الذنب"[٢]،

(١) شرح عقيدة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب ص٦١.
(٢) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ص٢٩١.

"لو شاء الله لهداني"، "الرزق مقسوم، فلا حاجة للسعي"، "الشقي شقي في بطن أمه، والموضوع محسوم"[١].

هذه العبارات تنتج نظرة قدريّة مُحبِطة تفرغ الأفعال من معناها، وتضعف روح المبادرة، وتلقي بالمسؤولية كلها على الله بدلاً من الذات.

المسألة الثانية: جذور هذا التصور:

- فهم حرفي أو سطحي لبعض النصوص مثل: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر:٤٩]، دون شرح الفرق بين علم الله السابق والإجبار.

- إسقاط نفسي ناتج عن تجارب فشل أو قهر، حيث يلجأ الفرد للجبر كتبرير لعجزه.

- خطاب ديني متأثر بالمدارس الجبرية، التي تغلب مشيئة الله على مسؤولية الإنسان دون توازن.

- نقل غير ناقد لبعض الأقوال أو الروايات، مثل: "الخير والشر من الله" أو "الزواج مكتوب ولا خِيرَة فيه".

- غياب التربية على مبدأ الفاعلية، مما يجعل الإنسان منذ الصغر يرى نفسه كائناً مسيّراً، لا مسؤولاً.

المسألة الثالثة: أمثلة واقعية على هذا التصور:

- شخص يبرر سرقته أو كذبه بقوله: "قدر الله عليّ، وليس بيدي شيء"، هنا تستخدم فكرة القضاء والقدر كذريعة للهروب من المسؤولية.

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ج٤ ص٦٥٨.

- شاب متدين يترك الدراسة والعمل بحجة أن "الرزق مكتوب" و"ما قسمه الله سيأتي دون جهد".

وفي بعض المذاهب، تُعزَى الحروب أو الكوارث أو حتى الفقر إلى "إرادة الله" وحدها، دون التفكير في الأسباب البشرية أو الخطأ الإنساني.

المسألة الربعة: الأثر النفسي:

١. انتشار مشاعر العجز (Learned Helplessness): يشعر الشخص أنه لا يملك السيطرة على حياته أو قراراته، ما يؤدي إلى انسحاب داخلي وتوقف عن المحاولة، وهذه الحالة تشبه ما وصفه عالم النفس مارتن سليغمان بـ"العجز المتعلَّم"، حيث يتوقف الفرد عن المقاومة لأنه يظن أن النتائج لا ترتبط بأفعاله.

٢. انخفاض الدافعية والاكتئاب: حين يسلب الإنسان شعور "الفاعلية" (Agency)، يفقد الشعور بالمعنى، فتتراجع طاقته النفسية، والاكتئاب هنا ليس فقط حزناً، بل شعور عام بعدم جدوى الجهد.

٣. تراجع المسؤولية الأخلاقية: يصبح من السهل تبرير الأخطاء والسلوك المنحرف على أنها "مقدّرة"، وهذا يولّد ضميراً ضعيفاً، لا يتفاعل مع الخطأ لأنه لا يشعر بالمسؤولية عنه.

المسألة الخامسة: التحليل النفسي والديني:

- نفسياً: تصور الجبر يفقد الإنسان أحد أهم احتياجاته النفسية: التحكم في الذات (Locus of Control)، فحين يعتقد الفرد أن كل شيء خارج إرادته، يتوقف عن التطور، ويعيش على هامش الحياة.

- دينياً: الإسلام يقرّ بالقدر، لكنه يؤكد على حرية الإرادة: قال تعالى: ﴿**فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**﴾[الكهف:٢٩]، وقال تعالى: ﴿**لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ**﴾[التكوير:٢٨]، والتكليف في الشريعة مبني على القدرة والاختيار، لا على الحتمية، وهو ما ينسف التصور الجبري إذا فُهم بشكل متوازن، وقد جاء في الحديث النبوي تحذير من هذا الانحراف: "ما هلكت أمة حتى يكون الجبر قولهم"(١).

المسألة السادسة: الأثر الاجتماعي:

- تعطيل الإصلاح الاجتماعي: إذا اعتقد الناس أن الظلم والفقر من قدر الله، فلن يطالبوا بتغيير أو إصلاح، وتكثر العبارات مثل: "هذه حال الأمة، والله أراد لها ذلك"، أو "لا نغير شيئاً إلا إذا شاء الله" – وكأن الناس خارج المعادلة.

- تبرير الطغيان والفساد: تستخدم فكرة القدر لتبرير أفعال الحكام أو رجال الدين: "هم موجودون بإرادة الله، فلا تعارضهم"، و"الرخص والغلاء بيد الله ليس لنا أن نجوز أمر الله وقضاءه"(٢)، وقول معاوية: "وإن أمر يزيد قد كان قضاء من القضاء وليس للعباد خيرة من أمرهم"(٣)، فتبرير الأوضاع السيئة باسم "المشيئة والقضاء" يؤدي إلى تعطيل العقل الجمعي.

- إخماد روح المبادرة الفردية والجماعية: المجتمع الجبري ينتج أفراداً سلبيين، لا يخططون، ولا يثورون على الظلم، ولا يبادرون إلى التغيير.

---

(١) حقائق المعرفة ص٢١٣.
(٢) الخراج لأبي يوسف ص٦٠.
(٣) الإمامة والسياسة، ج١، ص١٧١.

المسألة السابعة: التصحيح والعلاج التربوي:

- غرس مبدأ المسؤولية الفردية: عبر التعليم الديني الصحيح: ﴿**إِنَّ اللَّه لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[الرعد:١١].

- شرح القدَر بشكل متوازن: بأن الله يعلم ما سيكون، لكنه لا يجبر العباد على أفعالهم، فعلم الله سابق لا سائق، والإنسان مخيّر في دائرة من الظروف.

- تعزيز مفاهيم الفاعلية الشخصية والنجاح: مثل: المثابرة، السعي، الدعاء مع العمل، التفكير في النتائج كثمار للاجتهاد، ﴿**وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّه عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾[التوبة:١٠٥].

وبناء على ما سبق، فتصور الجبر ونفي الإرادة يضعف الإنسان من الداخل، ويعطّل المجتمع من الخارج.

وإذا كانت العقيدة تحرر الإنسان، فإن التصور الجبري يقيّده بقيود داخلية وهمية، تعفيه من المسؤولية، وتبعده عن الإصلاح.

ولهذا، فإن استعادة التوازن بين الإيمان بالقدر وتحمل المسؤولية هو مفتاح للنهوض النفسي والاجتماعي.

الفرع الرابع: الفصل بين العمل والجزاء:

المسألة الأولى: معنى التصور:

في هذا النمط من التصور الخاطئ، يعتقد الإنسان – بوعي أو لاوعي – أن العمل الصالح أو الطالح لا يفضي بالضرورة إلى جزاء عادل، وأن الجزاء (الثواب أو

العقاب) لا يتبع منطقاً واضحاً، بل هو خاضع فقط لـ"مشيئة إلهية غامضة"، لا ترتبط بالقانون الأخلاقي أو بالعدالة الظاهرة.

وهذا التصور يظهر في عبارات شائعة مثل: "ربما يعذّب الله الصالح، ويدخل العاصي الجنة"، "كل شيء بالمشيئة، فما فائدة الالتزام؟"، فـ "الثواب والعقاب ليسا لأحد بالأعمال"[١]، فـ"لا يدخل أحدكم الجنة عمله، ولا ينجيه عمله من النار"[٢].

فيؤدي هذا إلى انفصال داخلي بين الفعل ونتيجته، مما يفقد الإنسان شعور "الجدوى" من أفعاله، ويضعف علاقته بالعدل الإلهي.

المسألة الثانية: جذور هذا التصور:

- فهم مبتور لبعض الأحاديث على فرض صحتها، مثل: "لن يدخل أحدكم الجنة عمله"، دون فهم أن المقصود أن العمل وحده لا يكفي بلا توفيق ورحمة، لا أن العمل لا قيمة له.

- تأثر بثقافة قدرية عاطفية، تجعل كل شيء مرهوناً بـ"النية" أو "الرحمة"، دون ارتباط بالسلوك.

- نقل خاطئ لبعض الروايات، التي توهم أن الله يثيب ويعاقب بشكل لا يُفهَم أو يُتوقّع، دون سبب ظاهر.

- رؤية الواقع الظالم، حين يرى الإنسان أن الفاسدين ينجحون، والصالحين يُظلمون، فيظن أن الجزاء لا يتبع قوانين واضحة.

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج٨ص٢١٣.
(٢) مسند أحمد بن حنبل ج٢٣ص٣٩٦.

- ضعف في التربية على العدالة الربانية، حيث يفصل بين الدين كمنظومة روحية والسلوك كمسار أخلاقي يومي.

المسألة الثالثة: أمثلة واقعية على هذا التصور:

- شخص ملتزم دينياً لكنه يرى أهل الفساد أغنياء وسعداء، فيقول: "ما الفائدة من التدين إن كان الجزاء لا يظهر؟".

- طالب مجتهد يشعر بالخذلان لأنه لم ينجح رغم تعبه، بينما غيره نجح بالغش أو الواسطة، فيشكك في عدالة الله.

- متدين يقول: "الله قد يدخل العاصي الجنة ويعذّب العابد، فكل شيء راجع لمشيئته، ولا علاقة للعمل بذلك".

المسألة الثالثة: الأثر النفسي:

١. الإحباط الروحي واحتراق الضمير (Spiritual Burnout): يشعر الإنسان بأن جهده في الطاعة أو الأخلاق لا يثمر شيئاً، ما يصيبه بالفتور أو القنوط، فيتولد شعور بالخديعة أو "الغباء الأخلاقي"، وكأن الخير لا يجدي.

٢. ضعف الحافز لفعل الخير: حين يفقد الربط بين العمل والثواب، تتراجع دافعية الفرد للالتزام، لأنه لا يرى نتائج ملموسة، فيتسرب السؤال الخطير: "ما الجدوى من كل هذا؟".

٣. شعور داخلي بالظلم وعدم الاستحقاق: يتولد شعور بأن الحياة أو الإله "لا يكافئ العادل"، ما يخلخل الثقة بوجود نظام عادل يحكم الكون، وهذا يسبب

اضطراباً في الهوية الأخلاقية، وفقداناً للثقة بالله أحياناً، وإن بقي الشكل الديني موجوداً.

المسألة الرابعة: التحليل النفسي والديني:

- نفسياً: يسبب هذا التصور ما يعرف بـ "اضطراب المعنى" (Meaning Crisis)، حيث يشعر الإنسان بأن أفعاله لا تصنع فرقاً، وهو يشبه في بعض الحالات أعراض الاكتئاب الوجودي، المرتبط بفقدان الغاية أو الشعور بالعدالة.

- دينياً: الإسلام يؤكد على أن الله ﴿**لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[التوبة:١٢٠]، وأن الجزاء من جنس العمل، وإن لم يظهر في الدنيا، وأن الثواب والعقاب مرتبطان بالعمل: ﴿**وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[الزخرف:٧٢]، و ﴿**وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[السجدة:١٤].

والنصوص القرآنية تفرّق بين تأخير الجزاء ونفيه: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ**﴾[الزلزلة:٧] ، ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾[فصلت:٤٦].

لكن اعتماد بعض الناس على روايات تزعم أن الثواب والعقاب لا يرتبطان بالأعمال يؤدي إلى شعور بأن الأمور تجري "بعشوائية"، وهذا يرسّخ فكرة أن الثواب والعقاب منفصلان تماماً عن السلوك، وكأن الأفعال بلا معنى أصلاً.

المسألة الخامسة: الأثر الاجتماعي:

١. انهيار الدافع الأخلاقي الجماعي: ينتشر التدين الشكلي ويضعف الالتزام الحقيقي، فيصبح المجتمع أكثر نفعية: "افعل ما ينفعك الآن، فالجزاء مؤجل أو غير مضمون".

٢. صعود قيم الالتفاف والتحايل: حين لا يرى الناس قيمة للاستقامة، يُقبلون على الحيل، ويبررون السلوك غير الأخلاقي بـ"النتائج الواقعية".

٣. تفكك ثقة الناس في العدالة الإلهية: تضعف القيم الثابتة في المجتمع، ويصاب الناس بحالة "عدم يقين روحي"، تغذي الشك، والتشكيك، وربما النفور الديني لاحقاً.

المسألة السادسة: التصحيح والعلاج التربوي:

- إعادة ربط الجزاء بالعمل – داخلياً وخارجياً: بتعليم أن لكل عمل أثراً، ولو لم يُرَ فوراً، وأن العدل الإلهي قد يتأخر لكنه لا يغيب.

- التمييز بين الاختبار والتناقض: بعض مظاهر الظلم الظاهري هي اختبارات مؤقتة، وليست نقضاً للعدالة.

- تدريس النصوص الدينية القرآنية التي تؤكد على العدالة الدقيقة لله: مثل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً**﴾[يونس:٤٤]، و﴿**جَزَاء وِفَاقاً**﴾[النبأ:٢٦]، مع التنبيه على رفض كل رواية تعارض العدالة الإلهية.

- التأكيد على الجزاء النفسي والمعنوي في الدنيا: مثل: الطمأنينة، احترام الذات، الراحة الداخلية التي يعيشها الصادقون، وإن لم يُكافأوا ظاهرياً.

وبناء على ما سبق، فتصوّر أن الجزاء منفصل عن العمل يحدث شرخاً في نفس الإنسان وفي نُظم المجتمع.

فلا يعود الإنسان يرى قيمة للصدق، ولا يجد المجتمع مبرراً لمكافأة المخلصين.

ومن هنا، فإن إعادة ترسيخ مبدأ "العدل الإلهي المرتبط بالسلوك" هو حجر الأساس في بناء الضمير الفردي والنظام الأخلاقي العام.

الفرع الخامس: تصور الله كإله ظالم أو محب للكفر:

المسألة الأولى: معنى التصور:

في هذا النمط المشوَّه، يتخيّل بعض الناس – نتيجة فهم خاطئ أو تجارب صادمة – أن الله يريد الكفر لبعض الناس، أو يعاقبهم دون سبب مفهوم، أو يحب الفساد ويقدّره دون أن يكون لذلك معنى واضح أو عادل.

هذا التصور قد لا يصرّح به صاحبه دائماً، لكنه يظهر في نصوص مثل: "الله تعالى مريد لجميع الكائنات خيرها وشرها ومنها الإيمان والكفر، فهو سبحانه وتعالى مريد لإيمان المؤمن ومريد لكفر الكافر"(١)، و"الله يُحبّ الكفر، والفسوق، والعصيان، ويرضاه"(٢)، و"الله يضل من يشاء عن دينه فلا يهديه إلى الإسلام، ويهدي من يشاء لدينه"(٣).

المسألة الثانية: جذور هذا التصور:

– فهم حرفي أو جزئي لبعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى: ﴿**يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾[النحل:٩٣]، فإذا فُهمت خارج سياقها، قد تُوهم بأن الله يضل دون سبب.

– تجارب نفسية أو مجتمعية مؤلمة، مثل:

(١) شرح النووي على مسلم ج١٧ ص١٤٧.
(٢) النبوات لابن تيمية ج١ ص٢٨٧.
(٣) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار ج١ ص٢٨٣.

رؤية الظالمين في نعيم.

أو التعرّض لظلم باسم الدين.

أو تربية دينية قاسية تنسب القهر للإله مباشرة.

– تصور مشوّه لله ككائن غاضب أو انتقامي، يعذّب بلا رحمة.

المسألة الثالثة: الأثر النفسي:

١. قلق ديني مزمن (Religious Anxiety): يعيش الشخص في صراع بين رغبته في الإيمان، وشكوكه حول عدل الله، فيظهر هذا القلق في أسئلة متكررة، وحالة توتر دائم في العلاقة مع الدين.

٢. اضطراب الهوية الدينية: تصبح العلاقة مع الدين مرتبكة، فهو يريد أن يؤمن لكنه لا يشعر بالأمان النفسي مع هذا الإله الذي يتصوره ظالماً أو متحيزاً، وأحياناً، يتدين ظاهراً، لكنه يكره الله في داخله – وهي حالة تعرف بـ "الإلحاد العاطفي".

٣. قابلية عالية للنفور من الدين أو الإلحاد: في لحظة نفسية حرجة، قد يقرر الفرد التخلي عن الدين كله لأنه لا يستطيع قبول "إله بهذه الصفات"، وكثير من منشورات الإلحاد على الإنترنت تتضمن هذه النقطة تحديداً: رفض الله بسبب الظلم في العالم.

المسألة الرابعة: أمثلة واقعية على هذا التصور:

– شاب يرى أن الله لم يستجب دعاءه لسنوات، بينما يعطي غيره بلا دعاء، فيقول: "الله لا ينصف".

- فتاة نشأت في بيئة تعتبر غير المسلمين "مخلوقين للنار"، فبدأت تشك: "هل يعقل أن يُخلق شخص ليُعذب؟".

- شخص قرأ آيات في الضلال والهداية ففهمها كأنها تشير إلى تحكم تعسفي، فيبدأ يفقد ثقته بعدل الله.

المسألة الخامسة: التحليل النفسي والديني:

- نفسياً: يشبه هذا التصور ما يعرف في علم النفس الديني بـ "التمرد اللاشعوري على الإله الأبوي القاسي"، فالشخص يسقط تجربته مع أب أو معلم ظالم على صورة الله، فيصاب بنفور روحي.

- دينياً: القرآن لا يقرّ بهذا التصور، بل يفنّده: ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ [فصلت:٤٦]، ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[يونس:٤٤]، ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾[الإسراء:١٥].

فالهداية والضلال – بحسب النصوص – ليستا "تعسفيتين"، بل لهما أسباب: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**﴾[الصف:٥]، أي: الانحراف يبدأ من العبد، ثم يأتي الإضلال كعقوبة، لا كقرار سابق بلا سبب.

المسألة السادسة: الأثر الاجتماعي:

١. تفكك ثقة المجتمع في العدل الإلهي: حين يسود هذا التصور، يصبح الناس أكثر قبولاً للظلم الأرضي، لأنهم فقدوا الثقة في وجود عدالة سماوية.

٢. انهيار العلاقة بين الدين والرحمة: يظهر الدين حينها كقوة قهرية، لا كمنظومة هداية.

٣. تغذية التطرف والإلحاد معاً: المتطرف يبرر أفعاله بهذا التصور (الله يعذّب من يشاء دون سبب واضح)، والملحد يرفض الدين كله بسبب هذا التصور (لأنه لا يقبل إلهاً ظالماً).

المسألة السابعة: التصحيح والعلاج:

- تصحيح فهم الآيات القرآنية في سياقها الكامل.

- بيان أن الهداية والضلال لا تتمان دون إرادة الإنسان، ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى**﴾[فصلت:١٧]، ﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**﴾[محمد:١٧].

- تعليم أن عدل الله مطلق، حتى مع من لا يؤمن به، فحتى الكافر لا يُعذَّب إلا بعد بلوغ الحجة، وبحسب علم الله بعدله.

- إعادة تقديم صورة الله بوصفه حكيماً لا يتصرف عبثاً، وأن كل ابتلاء أو تأخير أو عقوبة مرتبط بحكمة، حتى لو لم ندركها فوراً.

- الاستماع للشكوك الدينية باحترام وتوجيهها تربوياً، دون قمع أو تخويف.

وبناء على ما سبق، فتصوّر الله كإله ظالم أو محب للكفر هو من أخطر التصورات الخاطئة، لأنه لا ينتج فقط انحرافاً فكرياً، بل شرخاً نفسياً عميقاً في العلاقة مع الإيمان.

ويبدأ العلاج من التربية العقائدية الرحيمة، والتوضيح بأن الله – في كل صفاته – عادل، رحيم، لا يعذّب إلا بحجة، ولا يضل إلا من اختار الضلال أولاً.

الفرع السادس: الاعتماد على الشفاعة كمبرر للتقاعس:

المسألة الأولى: معنى التصور:

في هذا النمط من التصوّر الديني المشوّه، يعتقد بعض الناس – دون وعي كامل – أن الشفاعة، خاصة شفاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو الأئمة أو الأولياء، ستكون كافية لنجاتهم في الآخرة، مهما بلغت ذنوبهم، ومهما قصّروا في التوبة أو الطاعة.

فيتحوّل مفهوم الشفاعة هنا إلى "ضمان أخروي"، يلغي فكرة المسؤولية الفردية، ويخلق شعوراً داخلياً زائفاً بالأمان، لا يستند إلى التوبة أو العمل، بل إلى الانتماء العاطفي لشخصية دينية محبوبة.

وقد لا يعبّر الشخص عن هذا التصوّر صراحة، لكنه يظهر في تفكيره الداخلي: "حتى لو أخطأت، سأُشفع"، "أنا من أتباع النبي/ الإمام/ الولي... هذا يكفي"، "لن أُحاسب كغيري، عندي شفاعة".

ويزداد هذا الوهم عندما نُدرك أن الشفاعة في تصور بعض المذاهب ليست للناس العاديين أو لأهل الطاعات، بل تقدَّم تحديداً لأهل الكبائر والمذنبين، أي أن الشخص يرتكب المعاصي مطمئناً لأنه يظن أن الشفاعة خُصصت أساساً لأمثاله، فيتحول الدين من دعوة للإصلاح والمسؤولية، إلى تذكرة مجانية للنجاة، تمنح لمن لم يلتزم أصلاً.

المسألة الثانية: جذور هذا التصوّر:

- فهم مجتزأ للشفاعة دون الانتباه لشروطها الواردة في القرآن والسنة.

- تلقين ديني عاطفي يربط الخلاص بـ"الانتماء الوجداني" لا بـ"السعي العملي".

- استخدام الشفاعة كآلية لاشعورية للتخفيف من الذنب أو القلق الأخروي.

- تربية دينية تبالغ في الحديث عن الرحمة دون التوازن مع العدل والمحاسبة.

المسألة الثالثة: الأثر النفسي:

١. تعميق التناقض بين التدين الظاهري والسلوك الواقعي: يرتدي الفرد مظهر التدين (حب النبي، الصلاة عليه، زيارة مقامات)، لكنه يتعامل بفجور، أو كذب، أو خيانة، وهذا الانفصام يضعف البنية الأخلاقية ويشجع على النفاق السلوكي.

٢. تعزيز الاتكالية وانعدام المحاسبة الذاتية: يلقي الإنسان مسؤوليته على "الشفاعة"، وكأنها ستنوب عنه في الحساب، ولا يشعر بالحاجة لتغيير حقيقي، لأنه "مضمون" في الآخرة.

٣. ازدواجية الشخصية (Religious Double Standard): يظهر بصورة المتدين أمام المجتمع، ويبرر أفعاله الخاطئة داخلياً بأنه "سيعفى عنه لاحقاً"، فيعيش بشخصيتين: واحدة متدينة شكلياً، وأخرى متمرّدة سلوكياً.

٤. قلق ديني مؤجل: قد يشعر الشخص في داخله أن هذا التصور هشّ، لكنه يؤجّل المواجهة، ويعيش بنوع من الإنكار، مما يخلق اضطراباً داخلياً كلما واجه نصوصاً تتحدث عن المحاسبة أو شروط المغفرة.

المسألة الرابعة: أمثلة واقعية على هذا التصوّر:

- شاب يتحدث كثيراً عن محبته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو الإمام علي، لكنه لا يُصلي، ويقول: "المحبة تكفي... نحن أمة مرحومة"(١).

- فتاة لا تهتم بأدائها الديني لكنها تواظب على حفظ المصحف، وتقول: "حفظ المصحف سيشفع لي"(٢).

شخص يعاني من ذنوب متكررة، ولا يشعر بندم حقيقي، لأنه يردد في نفسه: "الله غفور، والنبي سيشفع لنا مهما كان".

المسألة الخامسة: التحليل النفسي والديني:

نفسياً: هذا التصوّر يشبه ما يعرف في علم النفس بـ"آلية التهدئة النفسية اللاشعورية" (Unconscious Soothing Defense)، حيث ينتج العقل فكرة تخفف القلق الأخروي، حتى لو لم تكن واقعية، كما أنه يندرج تحت ما يسمى بـ"الاعتمادية الروحية غير الناضجة"، حيث لا يرى الإنسان خلاصه نتيجة مسؤوليته، بل نتيجة علاقات روحية خارجية.

دينياً: الشفاعة في النصوص مشروطة: لا تكون إلا بإذن الله، ولا تُعطى إلا لمن يستحقها، قال تعالى: ﴿**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى**﴾[الأنبياء:٢٨]، ﴿**وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى**﴾[النجم:٢٦].

---

(١) استناداً إلى رواية: "أمتي هذه أمة مرحومة، ليس عليها عذاب في الآخرة" سنن أبي داود ج٤ص١٠٥.

(٢) استناداً إلى رواية: "يشفع القرآن لصاحبه يوم القيامة" مصنف ابن أبي شيبه ج٦ص١٣٠.

أما الروايات التي تُفهم منها أن الشفاعة تُعطى لأهل الكبائر بلا توبة أو بلا تحقق شروط الاستحقاق[١]، فهي معارضة بغيرها، أو مناقضة لمقتضى القرآن الكريم، الذي قرّر أن الشفاعة لا تلغي العدل الإلهي، ولا تمنح لمن أصرّ على المعصية دون رجوع أو ندم.

المسألة السادسة: الأثر الاجتماعي:

١. تسطيح الوازع الديني: حين يسود هذا التصور، يصبح الالتزام الديني مجرّد رمزية عاطفية لا تترجم في السلوك.

٢. انتشار التدين الاستهلاكي: يظهر الدين وكأنه "خدمة يطلب منها العفو" دون محاسبة، مما يضعف أثره الإصلاحي في النفس والمجتمع.

٣. النفور من مفهوم العدل الإلهي لدى الجيل الجديد: حين يرون التدين يفهم بهذه الطريقة، يسألون: "ما الفرق بين الطائع والعاصي إذاً؟"، مما يولّد أزمة في فهم العدالة الربانية.

المسألة السابعة: التصحيح والعلاج:

- إعادة تقديم الشفاعة بوصفها رفع منزلة، لا رخصة للغفلة.

- تصحيح فهم النصوص: أن الشفاعة لا تتجاوز سنن الله في العدل والمحاسبة، ﴿**أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ**﴾[الزمر:١٩].

- بيان أن محبة النبي والأولياء ليست شعارات، بل التزام بمنهجهم وسلوكهم.

---

(١) نحو: "شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي" سنن أبي داود ج٤ ص٢٣٦.

- تعليم أن النجاة في الآخرة لا تكون إلا بمزيج من: العمل، الإخلاص، والرجاء، لا بالاعتماد على غيرنا، ﴿**لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً**﴾[النساء:١٢٣].

- الإنصات برحابة لأي تساؤلات أو مفاهيم خاطئة عن الشفاعة، وتفنيدها دون قسوة، لتثبيت الثقة بعدل الله وحكمته.

وبناء على ما سبق، فتصوّر الشفاعة كضمان مطلق هو انحراف خطير، لا لأنه مجرد فهم خاطئ، بل لأنه يهدم الإحساس بالمسؤولية الدينية من جذوره.

ويؤدي إلى علاقة دينية مشوّهة، ترتكز على الراحة النفسية لا على السعي الروحي.

والتصحيح لا يبدأ بالوعظ، بل ببناء وعي متوازن يُظهر أن الله رحيم، نعم، لكن رحمته لا تعطي التزكية لمن لم يسعَ إليها، ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأعراف:١٥٦].

الفرع السابع: تصغير العقوبة الأخروية:

المسألة الأولى: معنى التصور:

في هذا النمط من التصوّر الديني المخفّف، يعتقد بعض الناس أن عذاب النار – حتى لو أصابهم بسبب الذنوب والمعاصي – لن يطول، بل هو مؤقت، وسينتهي بالشفاعة أو رحمة الله، أو لمجرد أنهم قالوا "لا إله إلا الله".

فيتحوّل العذاب في هذا التصوّر إلى مرحلة انتقالية، أشبه بـ"عقوبة إصلاحية"، لا تستدعي الخوف العميق أو التحسب الأخلاقي.

وقد يبنى هذا التصوّر على روايات منقولة خارج سياقها، أو مفاهيم منتشرة شعبياً، مثل: "من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق"(١)، أو: "كل من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان سيخرج من النار"(٢).

النتيجة: يصبح الخوف من العذاب الأخروي ضعيفاً، ويختزل العقاب في مجرد "مرحلة" قبل دخول الجنة، لا تمثل تهديداً حقيقياً عند البعض.

المسألة الثانية: جذور هذا التصوّر:

- فهم مجتزأ لبعض الأحاديث دون الجمع بينها وبين النصوص التي تُظهر فظاعة العذاب وطوله.

- ثقافة دينية عاطفية، تركز على الرحمة والشفاعة دون تأكيد حقيقي على شروطها أو عدل الله.

- نفسية دفاعية تحاول تهوين مصير المعصية لتخفيف القلق الأخروي، فينتج العقل لاشعورياً تصوراً أقل رعباً.

المسألة الثالثة: الأثر النفسي:

١. ضعف الردع الأخلاقي: إذا لم ينظر للعذاب كشيء فادح، فلن يكون دافعاً كافياً لكبح الشهوات أو تقييد الأفعال المنحرفة، فيصبح الذنب محتمل العواقب.

---

(١) صحيح البخاري ج٧ص١٤٩.
(٢) صحيح البخاري ج٩ص١٢٩.

٢. التصالح مع المعصية: تصبح الذنوب اليومية "أخطاء قابلة للتحمّل"، لا تحتاج لمراجعة صارمة أو توبة عاجلة، فيبرر الإنسان في داخله سلوكه بقوله: "الله رحيم، ولن يدوم العذاب".

٣. ما يعرف بـ"آلية التخفيف الأخلاقي" (Moral Disengagement): حيث يقلل الإنسان من خطورة ما يفعل ليخفّف عن نفسه الضغط الداخلي، فيسكن ضميره دون تغيير فعلي.

المسألة الرابعة: التحليل النفسي:

هذا النمط من التفكير ينسجم مع ما يعرف في علم النفس بـ"التقليل اللاشعوري من العقوبة" (Minimization of Punishment)، حين يشعر الإنسان بأن العقوبة ليست شديدة أو دائمة، يقلّ الحافز لديه لتجنّب الخطأ، وينتج ذلك نمطاً داخلياً من "التبلد القيمي"، حيث لا تبقى المبادئ قوة رادعة، بل تعامل كخيارات قابلة للتأجيل أو التخطي المؤقت.

المسألة الخامسة: أمثلة واقعية على هذا التصوّر:

- شاب يكثر من المعاصي، ثم يقول مطمئناً: "حتى لو دخلت النار، سأخرج منها... المهم أن أموت على كلمة التوحيد".

- شخص يؤخر التوبة، ويخطط لفعل المعاصي ثم الحج في آخر حياته، لأنه يعتقد أن العقوبة مهما كانت، مؤقتة وسيتجاوزها.

- خطابات شعبية تقول: "الله لا يرضى لعبده النار، حتى لو عصى"، فتزرع في النفوس تطبيعاً مع الذنب.

المسألة السادسة: الأثر الاجتماعي:

١. ارتفاع مستوى الجرأة على المعاصي: إذا لم يعد العذاب مخيفاً، يتضاعف مستوى الاستهانة بالحرام، خصوصاً الكبائر.

٢. شيوع ثقافة التوبة المؤجلة: يؤجل الناس الالتزام، ويعتبرونه مشروعاً مستقبلياً، لا أولوية آنية، لأنهم لا يرون الخطر قريباً أو دائماً.

٣. ضعف التربية على الخشية واليقظة الإيمانية: تغيب المفاهيم التربوية التي تربط بين الذنب والعاقبة، ويصبح الدين خطاباً طيباً لا يربّي ضميراً يقظاً.

المسألة السابعة: الرد الديني والتصحيح:

- النار ليست "مرحلة إصلاحية"، بل مكان لا يُطاق، ولو للحظة، فكيف بمن يبقى فيها خالداً.

- الشفاعة لا تمنح للعاصي المستهين، بل لمن تاب، وندم، وسعى، ووقف بين يدي الله بقلب صادق.

- الجنة ليست بالانتماء ولا بالشعار، بل بالنية والعمل: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾[آل عمران:١٤٢].

- الجزاء في القرآن مرتبط بالاستحقاق، لا بالانتساب الشكلي، فمن آمن وعمل صالحاً، ﴿**فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾، وله الأمن، ومن عصى وأصرّ، فحسابه عسير، وفي العذاب مقيم.

وبناء على ما سبق، فتصغير العذاب الأخروي ليس مجرد خلل عقدي، بل تشويه خطير لمفهوم الجزاء والمسؤولية.

وهو يؤدي إلى تراكم الغفلة، وترسيخ نمط نفسي لا يخاف العقوبة، ولا يبادر للتوبة.

ولا يمكن بناء ضمير حي أو تدين صادق إلا حين تعود هيبة النار إلى الوجدان، لا لإرعاب الناس، بل لتذكيرهم أن النجاة لا تشترى، بل تكسب، وأن الجنة لا تنال بالتمني، بل بالنية الصادقة والسلوك المستقيم.

المطلب الثاني: آثار التصور الخاطئ لله على البناء والسلوك الاجتماعي:

الفرع الأول: شرعنة الاستبداد السياسي والديني:

المسألة الأولى: العلاقة بين تشويه صورة الله وتشويه مفهوم السلطة:

عندما يُصوَّر الله على هيئة إنسانية أو يُشبَّه بالمخلوقين (مثل أن له "يداً" أو "وجهاً" أو "يضحك" أو"يجلس") دون تنزيه حقيقي، يصبح من السهل نفسياً واجتماعياً إسقاط صفاته على شخصيات بشرية.

وهكذا، يتدرّج الوعي الجمعي من تصور الله كملك بشري، إلى القبول بأن الحاكم أو رجل الدين هو "نائب الله" أو "ظله على الأرض"، فيكتسب سلطة مطلقة لا تُسأل.

المسألة الثانية: كيف يبرر هذا التصور الاستبداد:

١. تقديس السلطة وغياب المساءلة: يقدَّم الحاكم أو المرجع الديني كـ"مفوَّض من الله"، وبالتالي:

لا يجوز نقده أو محاسبته.

يُنظر إلى طاعته كجزء من طاعة الله.

تصبح قراراته فوق الشريعة أو العقل.

٢. قمع المعارضة باسم الدين: أي معارضة للحاكم تُصور كمعارضة لله نفسه، مثل: "مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً"(١)، أو: "تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ"(٢).

٣. تجميد الوعي النقدي لدى الجماعة: إذا فُهِم أن الله قد منح هذا الشخص (الحاكم أو رجل الدين) تفويضاً مطلقاً، فلن يجرؤ أحد على تقييم قراراته، فيصاب المجتمع بحالة "شلل فكري"، ويغيب العقل أمام قداسة مفترضة.

المسألة الثالثة: أمثلة واقعية تاريخية ومعاصرة:

- في بعض العصور الإسلامية، استُخدم تعبير (خليفة الله في الأرض) لتبرير الاستبداد، رغم أن هذا المفهوم لم يرد في القرآن بمعناه السياسي السلطوي، بل فُهِم خطأ على أنه تفويض إلهي بالحكم، حتى قال أحدهم: "إن الله أمَّرني عليكم"(٣).

- بعض رجال الدين المعاصرين يصورون أنفسهم كـ"واسطة بين العبد وربه"، ويطالبون بالطاعة العمياء.

- الأنظمة الثيوقراطية (الدينية) تقدّم الحاكم كمقدَّس، ما يسمح بتمرير الفساد والاستبداد بحجة حماية الدين.

---

(١) صحيح البخاري ج٩ص٤٧.
(٢) صحيح مسلم ج٣ص١٤٧٦.
(٣) المعراج إلى كشف أسرار المنهاج ج٢ص٤٤٩.

المسألة الرابعة: التحليل الاجتماعي والسياسي:

- اجتماعياً: يؤدي هذا التصور إلى خلق مجتمع طُفيلي، يعتمد على ما يمليه "الرجل المقدس"، لا على قيم الحرية والعدالة والمشاركة، فيضعف المسؤولية الفردية، ويقوّي الطاعة العمياء.

- سياسياً: يكرّس الاستبداد الشرعي: أي الحكم المطلق المبرر دينياً، فيعطل المؤسسات، ويحبط أي محاولة لإصلاح أو رقابة.

المسألة الخامسة: التصحيح والتقويم:

- التأكيد على تنزيه الله: أن الله لا يشبه أحداً، ولا أحد يمثّله، ولا يفوض أحداً باسمه بشكل مطلق، ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[الشورى:١١]، ﴿**وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً**﴾[الكهف:٢٦].

- تحرير مفهوم "الخلافة أو النيابة": النيابة عن الله تعني الالتزام بالعدل، لا اكتساب سلطة مطلقة، ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾[النحل:٩٠].

- إحياء فقه المحاسبة والمساءلة: في الإسلام، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، الخلفاء الراشدون والأئمة أنفسهم كانوا يُحاسَبون ويُنتقدون.

- نشر ثقافة الوعي النقدي: فتقديس الأشخاص، حتى لو حملوا رمزية دينية، يخالف جوهر الدين الذي يدعو إلى المسؤولية والمشاركة.

وبناء على ما سبق، إن تشبيه الله بالمخلوقين لا يقتصر على خلل في العقيدة، بل يؤدي إلى انحراف خطير في بنية السلطة والمجتمع، حيث يسوّق الاستبداد باسم الدين، وتعلَّب الطاعة في عباءة القداسة.

والطريق إلى مجتمع عادل يبدأ من تصحيح صورة الله في الوعي الجمعي: إله لا يشبه أحداً، لا يفوّض أحداً دون شرط، ولا يقرّ الظلم باسم الدين.

الفرع الثاني: تفريغ الدين من الوظيفة الأخلاقية:

المسألة الأولى: معنى التفريغ:

من المفترض أن يكون الدين قوة محركة للأخلاق، ومصدراً للضمير الحي، ودافعاً للصدق، والعدل، والرحمة، لكن حين يتم تشويه صورة الله أو العقاب الأخروي، كما في التصورات السابقة (مثل الاعتماد المطلق على الشفاعة، أو تصور الله كإله متساهل لا يعاقب)، يتحول الدين تدريجياً إلى مجرد مظاهر شكلية خالية من المضمون الأخلاقي.

فيصبح الدين "هوية ثقافية" أو "طقس اجتماعي"، لا منظومة أخلاقية توجه السلوك.

المسألة الثانية: كيف يؤدي التساهل في العقوبة الإلهية إلى ذلك:

عندما تغيب فكرة المحاسبة، أو يستخف بالعقاب، يصبح الالتزام الأخلاقي أمراً اختيارياً، لا ضرورة فيه ولا ضمير يُلزِم، وحين يُشيع أن (الله غفور مهما حصل) أو (سيغفر لنا بسبب حبنا للنبي أو الإمام أو الولي)، تتكوَّن بيئة تمارس التدين شكلياً وتفصله عن القيم الفعلية، وهذا الفهم لا يعكس روح النصوص الدينية، بل يختزل العلاقة مع الله في عواطف فارغة، ويحوّل الدين إلى طقوس تغطي على السلوك

المنحرف بدل أن تقومه، والنتيجة: مجتمعات تدّعي الورع، وتبرر الظلم، وتفرغ الدين من محتواه الأخلاقي.

المسألة الثالثة: مظاهر تفريغ الدين من الأخلاق:

١. انتشار السلوكيات غير الأخلاقية باسم "العفو": يُرتكب الكذب، والغش، والظلم، والنفاق باسم "سعة رحمة الله"، فتُقال عبارات مثل: "الله لن يحاسبنا على كل شيء!"، "لسنا أنبياء، والله سيتجاوز عنا".

٢. تبرير الفساد والانحرافات على أساس ديني: تستخرج تفسيرات دينية لتبرير أعمال فاسدة، مثل: "طالما نُصلي ونصوم، فالله سيغفر لنا"[١]، أو: "نيتي طيبة، والله يعرف القلوب".

٣. تآكل الضمير الجمعي للمجتمع: يصبح الضمير بلا مرجعية واضحة، وتتكرر العبارات التي تخفف من الخطأ: "الكل يفعلها" – "لا أحد كامل" – "ربك غفور رحيم".

المسألة الرابعة: أمثلة واقعية:

- موظف يسرق أو يختلس، ثم يُخرج صدقة[٢] أو يحج ليسكن ضميره.
- شخص يخون الأمانة لكنه يبرر لنفسه بأنه "يصلي أكثر من غيره".
- مجتمع يعاني من تفشي الفساد، مع ارتفاع نسب التدين الظاهري (اللباس الديني، الأذكار، الطقوس)، أي أن الدين حاضر شكلياً، وغائب عملياً.

---

(١) استناداً إلى رواية: "الصلوات الخمس كفارة ما بينها" المعجم الأوسط ج١ص٧١.
(٢) استناداً إلى رواية: "الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار" سنن ابن ماجه ج١ص١٤٠٨.

المسألة الخامسة: التحليل النفسي والاجتماعي:

- نفسياً: يحدث انفصام بين التدين والسلوك، ما ينتج شخصية مزدوجة تعاني من التبرير المزمن للخطأ، ومع الوقت، يفقد الإنسان قدرته على الشعور بالخطيئة أو الذنب، فيصاب بتبلد الضمير.

- اجتماعياً: تغيب "الرقابة الذاتية"، فيزداد الاعتماد على "القانون الخارجي فقط"، فينخفض منسوب الثقة في المجتمع، وتتفكك القيم المشتركة.

المسألة السادسة: تصحيح المسار:

- استعادة الوظيفة الأخلاقية للدين، من خلال إعادة ربط العقيدة بالسلوك، لا بالفروض الشكلية فقط.

- التربية الإيمانية يجب أن تنتج ضميراً حياً لا طقوساً شكلية.

- توضيح أن "رحمة الله" لا تعني الترخيص في المعاصي، بل هي رحمة لمن تاب، لا تبرير لمن أصرّ على الخطأ.

- تعزيز الحديث عن أخلاق النبي صلى الله عليه وآله وسلم كمثال عملي، فقد كان خُلقه القرآن، وكان يقول: " إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ"[1].

- إبراز أثر الأعمال على المصير الأخروي بوضوح، لزرع مسؤولية شخصية لا تنفك عن العقيدة.

وبناء على ما سبق، حين يفرغ الدين من محتواه الأخلاقي، يفقد المجتمع ضميره، ويتحول التدين إلى واجهة شكلية تخفي ضعفاً أخلاقياً داخلياً.

---

(١) مسند الشهاب القضاعي ج٢ص١٩٢.

ولذلك، فإن إصلاح صورة الله والعقيدة يجب أن يكون مشفوعاً بإحياء البعد الأخلاقي للدين، ليعود الضمير الجمعي حياً، ويستعيد الإيمان أثره في الواقع.

الفرع الثالث: ثقافة التواكل واللامسؤولية المجتمعية:

المسألة الأولى: المعنى العام:

حين تسود فكرة أن الإنسان مسير بالكامل ولا يملك إرادة حقيقية (التصور الجبري)، ينتقل هذا الاعتقاد من كونه تصوراً عقدياً خاطئاً إلى أن يصبح ثقافة عامة تهيمن على المجتمع.

وتتحول هذه الثقافة إلى ذهنية تواكلية تسند كل ما يحدث – خيراً أو شراً – إلى القَدَر، وتعفي الفرد والمجتمع من المسؤولية عن أفعالهم أو واقعهم.

فيصبح "الظلم قدر، الفقر قسمة، التخلف مشيئة، والنصر أو الهزيمة كلها من الله... فلا حاجة للتغيير".

المسألة الثانية: آثار هذا التصور على المجتمع:

١. قبول الظلم كقدر محتوم: يصبح الظلم (سواء سياسياً، أو اقتصادياً، أو اجتماعياً) أمراً لا ينكر ولا يقاوم، فيقال: "هكذا أراد الله لنا" أو "لو شاء الله لتغيرت الحال"، وهذا يؤدي إلى:

استسلام نفسي وجماعي.

خضوع طويل الأمد للأنظمة الجائرة.

تبرئة الظالم وتحميل الضحية ذنبها.

٢. شيوع اللامبالاة تجاه القضايا الاجتماعية والسياسية: الناس لا تشارك في الإصلاح، أو تتحدث عن الظلم، أو تدافع عن حقوقها؛ لأنها ترى أن لا جدوى من أي فعل، فيظهر ذلك في عبارات مثل: "لن يتغير شيء، كله مكتوب"، والنتيجة:

جمود مجتمعي.

ضعف في روح المبادرة.

فقدان الثقة بأي تغيير حقيقي.

٣. إعاقة المبادرات الإصلاحية: حتى عندما تظهر دعوات للإصلاح أو مقاومة الظلم، تواجه بثقافة التثبيط: "لا تتعب نفسك، هذه إرادة الله"، "من أنت لتغيّر ما قدّره الله؟"، وهذا يفرّغ كل جهد من مضمونه ويطفئ الحماس الجماعي للتغيير.

المسألة الثالثة: أمثلة واقعية:

- مجتمع يرفض الثورة أو الإصلاح السلمي، بدعوى أن الحاكم الظالم "اختاره الله".

- رفض الاستثمار في التعليم أو التنمية بحجة أن "الرزق مقدر"، و"الله هو الرزاق وليس الشهادة".

- الاستسلام لـ (الفشل، المرض، الفقر) دون أي محاولة علاج أو تطوير أو تحسين، باعتبار أن "ما كتب قد كتب".

المسألة الرابعة: التحليل النفسي والاجتماعي:

- نفسياً: تنتج هذه الثقافة ما يعرف بـ العجز المتعلم (Learned Helplessness)، حيث يتوقف الإنسان عن المحاولة لأنه لا يربط الجهد بالنتائج، كما أنها تقتل الطموح، وتنتج أفراداً سلبيين، يبررون التقصير بـ"الإيمان"، بينما هو في الحقيقة اتكالية مغلفة بالدين.

- اجتماعياً: تعيق التنمية، وتفرغ الإصلاح من حيويته، وتغيب المحاسبة المجتمعية، لأن الجميع يرمي المشكلات على "المشيئة" بدلاً من الاعتراف بدورهم فيها.

المسألة الخامسة: التصحيح الفكري والتربوي:

- التفريق بين "الإيمان بالقدر" و"الاستسلام السلبي"، الإسلام يعلّم أن الإيمان بالقدر لا يلغي السعي، بل يرافقه: "اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ"(١)، و﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[الرعد:١١].

- إحياء فقه المسؤولية الفردية والجماعية، فكل إنسان مسؤول عن أفعاله ومشاركته في التغيير.

- إعادة تعريف "الرضا بالقدر" على أنه تقبل لما لا يمكن تغييره، لا ما يمكن تغييره ونتقاعس عنه.

- نقد الخطاب الديني التثبيطي الذي يربط كل شيء بـ"الإرادة الإلهية" دون ذكر دور الإنسان.

---

(١) سنن الترمذي ج٤ ص٦٦٨.

وبناء على ما سبق، فثقافة التواكل باسم الدين ليست تديناً، بل تشويه عميق لعقيدة القدر، يضعف الفرد ويجمّد المجتمع.

ولا يمكن بناء أمة حية ومسؤولة ما لم نؤمن بأن الله قدّر الأمور، لكنه أمرنا بالسعي لتغيير ما نستطيع.

فبين القدر والتكليف مساحة واسعة من العمل، هي التي نحاسب عليها، ويبنى عليها مستقبل الأفراد والمجتمعات.

الفرع الرابع: انهيار قيمة العمل والكفاءة:

المسألة الأولى: المعنى العام:

عندما يترسّخ في الوعي الديني أو الاجتماعي أن الجزاء – دنيوياً أو أخروياً – لا يرتبط بالعمل أو الكفاءة، بل هو محض مشيئة أو "نصيب" أو "واسطة"، فإن قيمة العمل تفقد معناها.

ويتحول النجاح أو المكانة إلى أمرٍ عشوائي أو قائم على العلاقات لا الجهد، "لماذا أشتغل إذا الذي فوق ما يشتغل؟"، "الذي عنده واسطة، يأخذ كل شيء حتى لو لم يستحقه"، "المجتهد والمقصر عند الله سواسية طالما كلهم مسلمون!".

هذا التصور ينتج ثقافة اجتماعية تحط من قيمة الاجتهاد وتعلي من التحايل والانتهازية، مما يؤدي في النهاية إلى انهيار المنظومة الأخلاقية والوظيفية معاً.

المسألة الثانية: مظاهر انهيار قيمة العمل في الواقع:

١. سيادة المحسوبية والانتهازية: تمنح المناصب والمكافآت بناءً على العلاقات أو الولاءات لا بناءً على الكفاءة، فيهمّش أصحاب القدرات لصالح "أصحاب

النفوذ"، ويقال: "الذي ليس له ظهر، يضيع"، "شغلنا ليس بالكفاءة، بالشخص الذي يعرف مَن!".

٢. تراجع قيمة الاجتهاد في الوعي العام: لا يكافأ المجتهد، ويفقد الناس الدافع للعمل الجاد، فالطلاب، والموظفون، والمهنيون لا يجدون أثراً لتميزهم، فيدخلون في دوامة الإحباط.

٣. تعزيز الفساد الممنهج على حساب القيم: تصبح الرشوة، والغش، واستغلال النفوذ سُبلاً "مشروعة" للنجاح، وينظر للفساد على أنه جزء من "قوانين اللعبة"، لا استثناء لها، فينتشر مبدأ: "القانون لا يطبّق إلا على الضعفاء"، "من لا يفسد، لا يعيش".

المسألة الثالثة: الأثر الديني والاجتماعي:

١. دينياً: يشوَّه التصور عن عدالة الله، فيظن الناس أن الآخرة أيضاً تدار بالعلاقات لا بالاستحقاق، فتضعف فكرة ﴿**إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً**﴾ [الكهف:٣٠].

٢. اجتماعياً: تدمير العدالة التوزيعية: إذ لا يكافأ من يستحق، ولا يحاسب من يفسد.

٣. هجرة الكفاءات: لأن بيئة اللامساواة تجبر المتميزين على البحث عن مكان يقدّرهم.

٤. انعدام الثقة في المؤسسات: فيرى الناس أن لا جدوى من الالتزام، لأن النجاح يُباع ويُشترى.

المسألة الرابعة: الأمثلة الواقعية:

- مؤسسات وإدارات توظف "أبناء المسؤولين" في مناصب قيادية رغم ضعف خبرتهم، بينما يُقصى الأكفاء.

- طلاب يغشون بتواطؤ إداري وينجحون، بينما يعاقب المجتهد لأسباب إجرائية.

- موظف ملتزم لا يُكرّم ولا يُرقّى، بينما موظف متملق يُكافأ.

المسألة الخامسة: التصحيح الفكري والتربوي:

- إعادة ترسيخ العلاقة بين العمل والجزاء في العقيدة: ﴿**هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ**﴾[الرحمن:٦٠]، ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ**﴾[الزلزلة:٧].

- تأكيد أن مشيئة الله لا تلغي نظام السنن والعدل: فالله قد يبتلي، لكنه لا يظلم، والعمل المخلص لا يضيع حتى إن تأخر جزاؤه.

- محاربة ثقافة الواسطة والانتهازية في التعليم والمساجد والإعلام: فالدين لا يبرر الفساد، ولا يدعو للتكاسل.

- نشر القدوة الناجحة الصادقة، بدل تلميع المتسلقين: لزرع احترام العمل الحقيقي لا التبعية.

وبناء على ما سبق، فحين يفصل الجزاء عن العمل، تنهار أخلاقيات المجتمع، ويصبح النجاح ملكاً لمن يجيد الالتفاف لا الاجتهاد.

ولا يمكن إصلاح هذا إلا بإعادة ربط الجزاء بالاستحقاق، والعمل بالنتيجة، والمشيئة بالعدل، حتى يستعيد الفرد دافعيته، ويعود المجتمع إلى الإنصاف والتكافؤ.

الفرع الخامس: نزع الشرعية عن الآخر:

المسألة الأولى: المعنى العام:

عندما يُصوَّر الله على أنه كاره للمخالفين في العقيدة أو المذهب أو الرأي، أو يُعتقد أنه خلق بعض الناس ليضلهم أو يعذبهم بلا سبب، فإن هذا التصور لا يتوقف عند حدود الفرد، بل يتحوّل إلى أداة اجتماعية خطيرة لنزع الشرعية عن الآخر المختلف.

أي أنَّ من خالفني في الدين أو المذهب أو الفكر، لا يعتبر "إنساناً" كامل الأهلية في الحقوق أو الاحترام، بل عدوّاً لله – حسب هذا التصور.

المسألة الثانية: كيف يؤدي هذا التصور إلى العنف والإقصاء:

تصور الله كظالم أو كاره للمخالف: مثل: "الله لا يُريد الهداية لليهود أو النصارى أو الطوائف الأخرى"، "المخالفون في المذهب خلقهم الله لأجل النار"، "فلان ضال، والله أراد له الضلال".

فيتحول هذا الاعتقاد إلى تبرير نفسي وديني للعنف والإقصاء، لأن الإنسان يرى نفسه ممثلاً لـ"إرادة الله" في معاداة الآخر.

المسألة الثالثة: الآثار الاجتماعية والسياسية:

١. عنف ديني وطائفي باسم "إرادة الله": فتبرَّر الحروب، والتفجيرات، أو التصفيات الطائفية على أنها "تنفيذٌ لأمر الله"، وتقال عبارات مثل: "الله أمرنا بقتلهم/ بغضهم/ مهاجمتهم"، "الضالون لا يستحقون الحياة الكريمة، لأنهم أعداء الدين".

٢. إقصاء المخالفين وتكفيرهم: المخالف يخرج من دائرة "الإنسانية الكاملة" أو "المواطنة"، ويصبح المخالف "نجساً"، أو "لا يُؤمَّن جانبه"، أو "كافراً يجب قتاله"، حتى لو كان مسالماً، ويتم التشكيك في نوايا أي حوار مع المخالف، ورفض المصطلحات مثل "التعايش" أو "الاختلاف المحترم".

٣. انهيار ثقافة الحوار والتعدد: الحوار يستبدل بالاتهام، والتعدد يستبدل بالتوحيد القسري، وتنتشر ثقافة "من ليس معي فهو ضدي"، وتغيب القيم القرآنية مثل: ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[النحل:١٢٥]، ﴿**وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ**﴾[الأنعام:١٠٨].

المسألة الرابعة: أمثلة واقعية:

- جماعات متطرفة تكفّر كل من خالفها، وتهاجم المساجد أو الكنائس أو الحسينيات باسم "تطهير الدين".

- خطاب إعلامي ديني يشيطن الأقليات أو المذاهب الأخرى، ويصفهم بأنهم "أعداء الله".

- مجتمعات دينية تعامل المختلفين بازدراء دائم، وتمنع أبناءها من التعامل معهم حتى في المعاملات الإنسانية.

المسألة الخامسة: التحليل النفسي والديني:

- نفسياً: هذا التصور يمنح الفرد إحساساً زائفاً بالتفوق الأخلاقي والديني، ويبرر داخلياً العنف أو الكراهية، دون أن يشعر بالذنب.

- دينياً: الإسلام يُعلّم أن الهداية والضلال لا تبرر الظلم: ﴿**وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾[المائدة:٨] ، والقرآن مليء بآيات التعدد والاختلاف: ﴿**وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾[هود:١١٨]، ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾[الكافرون:٦].

المسألة السادسة: التصحيح الفكري والتربوي:

- توضيح أن الله لا يكره أحداً لذاته، بل يحاسب على الاختيار الحر، من ضلّ، ضلّ بعد قيام الحجة، وليس لأنه "مُكره على الضلال".

- إحياء مفهوم الرحمة والعدل في تعامل الله مع عباده، ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾[الإسراء:١٥]، ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾[فصلت:٤٦].

- تعليم التعدد كجزء من السنن الكونية، وأن الاختلاف لا يعني العدوان، بل يدعو إلى الحوار والاحترام.

- مكافحة خطاب الكراهية باسم الدين في المنابر والإعلام والتعليم.

وبناء على ما سبق، فنزع الشرعية عن "الآخر" باسم الله هو انحراف خطير، يبدأ من تشويه صورة الله، وينتهي بإراقة الدماء أو تمزيق المجتمع.

ولا يمكن ترميم النسيج الاجتماعي أو تحقيق العدالة إلا بتصحيح هذا التصور، وتربية الأفراد على أن الله عادل رحيم، لا يبيح الظلم، ولا يقدّس الكراهية، ولا يرضى بإقصاء خلقه باسم الدين.

الفرع السادس: تطبيع الوساطة والفساد المؤسسي:

المسألة الأولى: المعنى العام:

عندما يُفهم مبدأ الشفاعة الدينية فهماً مغلوطاً، يصبح في وعي الأفراد مشابهاً لفكرة "الواسطة" في الدنيا، أي أن من له قرب من "أولياء الله" أو "الرموز الدينية"، يمكنه النجاة أو التفوق دون استحقاق.

وهذا التصور الخاطئ ينتقل من الدائرة الأخروية إلى المؤسسات الدنيوية، وينتج ما يُعرف بـ ثقافة الواسطة الدينية، حيث يتم تبرير الفساد والتمييز الطبقي باسم الدين.

المسألة الثانية: كيف يرتبط هذا التصور بالفساد المؤسسي:

١. تحويل الشفاعة إلى وساطة دنيوية: يُظن أن القرب من "أشخاص مقدسين" أو "أبناء قادة دينيين" يكسب امتيازاً في الدنيا والآخرة، وهذا يشبه تماماً فكرة أن الوظيفة أو النجاة أو التقدير لا تأتي بالجهد، بل بالعلاقات.

٢. إسقاط النموذج الأخروي على المؤسسات: كما يظن البعض أن الشفاعة تعفي من الحساب الإلهي، فإنهم يرون أن الواسطة تعفي من العقاب القانوني، وهذا يخلق تشابهاً نفسياً بين المفهوم الديني المحرّف، والممارسات الفاسدة في المجتمع.

المسألة الثالثة: النتائج الاجتماعية:

١. ثقافة "الواسطة" بدلاً من العدالة: تستبدل معايير الكفاءة والاستحقاق بمعايير "القرب" و"النفوذ"، فيقال: "من يعرف فلان، لا يُحاسَب"، "كل شيء له مفتاح.. بس اعرف من!".

٢. غياب الثقة بالمؤسسات والقانون: يشعر المواطن أن القوانين لا تطبَّق على الجميع، فيؤدي ذلك إلى:

الإحباط العام.

اللجوء إلى الطرق غير الرسمية للحصول على الحقوق.

تآكل احترام القانون كمرجعية عليا.

٣. ترسيخ الطبقية باسم الامتيازات الدينية: تمنح بعض الفئات – بسبب النسب، أو الانتماء الديني، أو "القرابة السياسية" – امتيازات لا تمنح لغيرهم، وينتج عن ذلك:

احتكار الفرص.

شعور بالتفوق الوراثي أو الروحي.

إقصاء اجتماعي مغطى بلغة دينية.

المسألة الرابعة: أمثلة واقعية:

- موظف فاسد لا يُحاسَب لأنه "من بيت شيخ معروف".

- طالب يحصل على منحة أو وظيفة لأنه من عائلة "دينية" مشهورة، رغم ضعف مؤهلاته.

- قوانين تطبَّق على العامة فقط، بينما تعفى منها "الرموز الدينية والسياسية" أو المقربون منهم.

المسألة الخامسة: التحليل النفسي والديني:

- نفسياً: يتعلم الأفراد أن العدالة ليست قيمة ثابتة، بل علاقة متغيرة، فتنشأ أجيال على الاعتماد على "الحظ والواسطة"، لا على الكفاءة والجد.

- دينياً: الإسلام بريء من هذا التصور؛ الشفاعة لا تمنح أحداً حقّاً بلا توبة أو استحقاق، والشفاعة مرتبطة برضا الله، لا بشخص الشفيع: ﴿**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى**﴾[الأنبياء:٢٨]، ﴿**مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾ [غافر:١٨].

وفي الحديث الشريف: "يَا فَاطِمَةُ ابْنَةُ رَسُولِ اللهِ، اعْمَلِي للهِ خَيْرًا، إِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ"(١).

المسألة السادسة: التصحيح الفكري والمجتمعي:

- تفكيك الخلط بين "الشفاعة" و"الواسطة"، الشفاعة رفع منزلة مشروطة، لا تحايل ولا محسوبية.

- تعزيز قيم العدالة والشفافية داخل المؤسسات، فالمؤسسات يجب أن تدار على أساس الجدارة لا النسب أو الانتماء.

- نقد الامتيازات الطبقية المغلَّفة بالدين، فلا فضل لعائلة على أخرى إلا بالعمل الصالح.

- بناء وعي مجتمعي يربط بين الإيمان الحقيقي والنزاهة لا بين التدين والتمييز.

---

(١) الأمالي الخميسية ج٢ص٣٣.

وبناء على ما سبق، عندما يتحول الدين من مصدر للعدالة إلى غطاء للامتيازات، يتفكك المجتمع، وتترسخ ثقافة الفساد باسم "الكرامات" و"القربى".

والعودة إلى روح الدين تتطلب إحياء فقه الشفاعة بشروطه، وإعادة الاعتبار للعدالة كأصل لا يساوم عليه، في الدنيا كما في الآخرة.

الفرع السابع: تراجع المحاسبة المجتمعية:

المسألة الأولى: المعنى العام:

حين يسود في الوعي الجمعي أن العقوبة الأخروية غير دائمة أو قابلة للتجاوز مهما بلغ الذنب، يصبح الشعور الجمعي بالذنب ضعيفاً أو منعدماً.

ومع تكرار الأزمات أو الانهيارات، لا يراجع الناس أنفسهم بجدّية، بل يحمّلون القدر أو الظروف المسؤولية، دون محاسبة جماعية أو ندم اجتماعي حقيقي.

أي أن الضمير الجماعي يذوب، والنقد الذاتي يغيب، ويعاد إنتاج الأخطاء بلا توقف.

المسألة الثانية: كيف يؤدي تصغير العقوبة إلى هذا التراجع:

إذا اعتقد الناس أن العذاب الأخروي مؤقت أو مضمون تجاوزه، فإن الخطأ الجماعي لا يبدو خطيراً بما يكفي ليستدعي التوبة.

وتستبدل المحاسبة العميقة بعبارات مثل: "الله غفور رحيم"، "نحن أمة مرحومة"، "سنُعذّب قليلًا ثم ندخل الجنة"، وهذا ينتج تصالحاً عامّاً مع الأخطاء، والعنف، والتقصير.

المسألة الثالثة: مظاهر تراجع المحاسبة المجتمعية:

١. غياب الندم والتوبة الجماعية بعد الكوارث أو الأزمات: فلا يطرح السؤال: "لماذا وصلنا إلى هذا الحال؟ وما دورنا فيه؟" بل يقال: "ابتلاء من الله"، "فتنة مكتوبة"، "لنخرج منها أقوى" – دون تغيير حقيقي.

٢. ضعف الحس التاريخي والنقد الذاتي للأمة: يعاد تكرار الأخطاء السياسية والدينية والاجتماعية دون تعلم من التجارب، فتنسى جرائم كبرى، أو تجمّل تحت شعارات مثل: "كان القصد نبيلاً"، "نيته كانت صالحة"، "أجتهد فأخطأ".

٣. تطبيع العنف باسم "النية الحسنة" أو الدوافع الدينية: تبرر أعمال القتل أو القمع أو الظلم بدافع "الحماسة للدين" أو "الغيرة على العقيدة"، فيعفى المرتكب من اللوم لأنه "قصد الخير"، بغض النظر عن النتيجة الكارثية.

المسألة الرابعة: أمثلة واقعية:

– بعد الحروب الأهلية أو القمع السياسي، لا تحاسب الأنظمة أو الفصائل، بل يبرر العنف بـ"دوافع دينية" أو "ضرورات أمنية".

– المجتمعات التي تبرر التواطؤ مع الاستبداد على أنه "خوف مشروع" أو "فتنة يجب كتمها".

– غياب المحاسبة عن أخطاء كبرى في التاريخ الإسلامي، بسبب "مقام الصحابي" أو "رمزية الخليفة"، ما يمنع النقد التاريخي البنّاء.

المسألة الخامسة: التحليل النفسي والاجتماعي:

- نفسياً: تنشأ حالة من الإنكار الجماعي، يُرفض فيها الاعتراف بالخطأ، ويستخدم الدين لتخفيف الضغط النفسي، دون تصحيح فعلي.

- اجتماعياً: تضعف الذاكرة الجمعية، فلا تبقى دروس الماضي حيّة، وتعاد نفس الأخطاء في السياسة، والإعلام، والدين، نتيجة الغياب التام للمحاسبة والنقد.

المسألة السادسة: التصحيح والمواجهة:

- ربط العقوبة الأخروية بمسؤولية جماعية: القرآن يربط الهزيمة أو العقاب بانحراف جماعي، لا فردي فقط، قال تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ**﴾[آل عمران:١٦٥]، يشير إلى خلل داخلي داخل الجماعة، مثل العصيان والطمع، و ﴿**إِنَّ اللَّه لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[الرعد:١١]، يؤكد أن التغيير الإلهي مرتبط بتحول جماعي في القيم والسلوك، لا بمجرد توبة فردية، فالمسؤولية جماعية والعقوبة كذلك.

- إحياء فقه "الاستغفار الجماعي" والتوبة المجتمعية: الخطاب الديني بحاجة إلى تجاوز النزعة الفردية، لأن الذنوب العامة - كالظلم وترك الحق - لا تعالج بتوبة فردية صامتة، المطلوب هو وعي جماعي يقود إلى استغفار وتوبة يشترك فيها المجتمع كله، اعترافاً جماعياً بالخلل وسعياً جاداً للإصلاح، لا الاكتفاء بالأدعية.

- نقد "النية الحسنة" كمبرر للدمار: الإسلام يشترط النية الصالحة والعمل الصالح معاً، كثير من الكوارث ترتكب باسم النية الطيبة، وهذا مرفوض شرعاً وعقلاً، فالنية الحسنة وحدها لا تُبيّض الخطأ.

- تعليم التاريخ بنزاهة: يعني تقديم الوقائع كما هي، دون تأليه الشخصيات أو تجريم من ينتقدها بأدب علمي، فالتاريخ ليس مجالاً للتقديس، بل للتعلّم، والاعتراف بأخطاء الماضي لا يطعن في العقيدة، بل يرسّخ الوعي ويمنع تكرار الكوارث، ومن يجمّل التاريخ يخدع الأجيال، ومن يصحّحه يمنحهم مناعة فكرية وأخلاقية، فلا تبرّر الفعل الفاسد.

وبناء على ما سبق، فتصغير العقوبة الأخروية لا ينتج فقط استهانة فردية بالذنب، بل يتسبب في انهيار قدرة الأمة على محاسبة نفسها، واستمرار دوامة التكرار والخذلان.

ولا تنهض أمة إلا بضمير حي، يعترف بالزلل، ويطلب التوبة لا التبرير، ويتخذ من آلامه طريقاً للوعي والتصحيح.

المبحث الثالث
التصور الصحيح للّه وآثاره النفسية والاجتماعية

في مقابل التصورات المشوهة التي تزرع الخوف غير المتزن أو التواكل أو التناقض بين الدين والسلوك، يأتي التصور الصحيح لله كضرورة عقلية ونفسية وتربوية، لا كمجرد فكرة عقائدية، فالفهم السليم لله - كما ورد في القرآن والسنة - ليس معرفة نظرية بصفاته، بل وعي حيّ يتغلغل في أعماق النفس ويشكّل بوصلة الأخلاق والضمير والسلوك.

في هذا المبحث نسلط الضوء على ملامح التصور الإيماني المتوازن لله: تنزيه عن صفات المخلوق، جمع بين الرحمة والعدل، تصوير الله كربّ حكيم لا كقاضٍ جافّ، ثم نبيّن كيف ينعكس هذا الفهم في بناء شخصية سوية تملك ضميراً يقظاً، وتوبة فاعلة، وشعوراً عميقاً بالمسؤولية، وعلى المستوى الاجتماعي، يظهر كيف يسهم هذا التصور في مقاومة الاستبداد، وتعزيز العدالة، وإعادة الدين إلى موقعه الأخلاقي الطبيعي.

فالتصور الصحيح لله ليس رفاهية فكرية، بل هو حجر الأساس في بناء الإنسان والمجتمع.

المطلب الأول: ملامح التصور الصحيح لله وأثرها في النفس:

الفرع الأول: تنزيه الله عن صفات المخلوقين:

المسألة الأولى: معنى التنزيه:

المقصود بتنزيه الله هو الإيمان المطلق بأن الله لا يشبه أحداً من خلقه، وأن صفاته كاملة لا تتقيد بقيود المخلوقين، ولا تقاس بقياس البشر، فهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وكل ما يخطر في البال، فالله بخلافه.

المسألة الثانية: الأثر النفسي للتنزيه:

عندما يُربى الإنسان منذ الصغر على أن الله منزه عن مشابهة المخلوقات، تتولد في داخله مشاعر السمو، والتعظيم، والرهبة المحفزة، لا الرهبة المخيفة.

والتنزيه يزرع في النفس احتراماً لقدسية الإله، ويطهّر العقل من التصورات المجسمة التي تسيء إلى الدين وتضعف أثره.

كما أن التنزيه يجنب الفرد التناقض النفسي الناتج عن تصور الإله بصورة بشرية تحاسب بعصبية، أو "تغضب" أو "تخلف الوعد والوعيد" كالبشر، مما يخلق قلقاً روحياً مزمناً.

المسألة الثالثة: كيف يعزز التنزيه التوازن بين الحب والخوف:

في ظل التنزيه، يفهم المؤمن أن خوفه من الله ليس خوفاً من "قوة غامضة"، بل من عدل مطلق، وأن حبه لله ليس حباً عاطفياً صرفاً، بل حب نابع من إدراك عظمة الخالق، حتى يكون لسان الحال "ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك".

وهذا التوازن بين الحب والخوف ينتج حالة من "المراقبة الإيجابية"، لا الخوف المشلول ولا الرجاء المتساهل.

الفرع الثاني: الجمع بين صفات الرحمة والعدل:

المسألة الأولى: التصور القرآني المتوازن لله:

من أبرز ملامح التصور الصحيح لله في الإسلام أنه إله يجمع بين الرحمة والعدل، فالقرآن لا يقدّم الله كإله متساهل لا يهمه الصواب والخطأ، ولا كإله منتقم يعاقب بلا رحمة؛ بل يجمع بين الرأفة والجزاء، وبين المغفرة والمحاسبة.

وفي كل موضع يُذكر فيه ﴿**غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾، يقابله ﴿**شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾، لإحداث توازن نفسي عميق.

المسألة الثانية: الأثر التربوي على الضمير:

حين يفهم الإنسان أن الله رحيم لكنه عادل، تنشأ لديه رقابة ذاتية قوية، فهو لا يتكل على الرحمة كضمان، ولا ييأس من العدل كتهديد، فيصبح ضميره حياً، يخشى الظلم، ويطمئن إلى المغفرة إذا تاب.

وهذا النوع من التصور ينتج حالة من "الطمأنينة المسؤولة"، وهي حالة وسط بين الخوف المشلول والرجاء المتواكل.

المسألة الثالثة: الاتزان بين الأمل والخشية:

تصور الله كإله يجمع بين الرحمة والعدل يساعد في:

- تعزيز الرجاء عند الخطأ: لأن الله يقبل التوبة ولا يغلق باب الرحمة.
- ترسيخ الخوف النبيل: لأن الله لا يظلم، لكنه لا يهمل الحساب.

هذا التوازن هو الذي يزرع في النفس ما يعرف بـ "التقوى الإيجابية"، التي تدفع الإنسان إلى العمل، لا إلى الانسحاب أو التراخي.

الفرع الثالث: تصور الله كرب حكيم وليس كقاضٍ قاسٍ:

المسألة الأولى: الفرق بين الحكمة والعقوبة المجردة:

في بعض التصورات الخاطئة، يُصوَّر الله وكأنه قاضٍ صارم، ينتظر الأخطاء ليعاقب عليها، دون مراعاة للنية أو الظروف أو التوبة.

أما في التصور الصحيح، فالله حكيم، أي أن كل أفعاله قائمة على الحكمة المطلقة، لا على الانتقام أو التعسف.

والابتلاءات مثلاً لا تُفهم كعقوبات، بل كاختبارات، أو وسائل للتهذيب والارتقاء.

المسألة الثانية: الأثر النفسي لهذا التصور:

عندما يدرك الإنسان أن الله حكيم، يهدأ توتره الوجودي:

- لا يرى الظلم في البلاء، بل يرى حكمة قد تخفى عليه.
- لا يصاب بالشك حين يتأخر الفرج، لأنه يثق في توقيت الله.
- لا يصاب باليأس إذا لم تستجب دعوته، لأنه يعلم أن المنع قد يكون عين العطاء.

هذا الفهم يخفف من القلق الوجودي، ويعزز القدرة على الصبر والتعاطي الإيجابي مع الحياة.

المسألة الثالثة: كيف يساعد على تقبل القدر:

الاعتقاد بحكمة الله يحوّل موقف الإنسان من الاعتراض إلى الرضا، فيصبح الإيمان بالقدر مصدر قوة داخلية، وليس تبريراً للعجز، فالإنسان الذي يرى الله حكيماً، يفهم أن وراء كل أمر تدبيراً، حتى لو لم يفهمه الآن.

وبهذا، يولد نوع من السلام الداخلي العميق، ينعكس على التوازن النفسي والثقة في الحياة.

المطلب الثاني: آثار التصور الصحيح لله على السلوك الفردي:

إذا كان التصور الخاطئ ينتج اضطراباً في الضمير واختلالاً في الأخلاق، فإن التصور السليم لله يعدّ من أقوى محركات السلوك الراشد.

فحين يرى الإنسان أن الله رحيم، عادل، حكيم، قريب، محيط، فإن هذا ينعكس على اختياراته اليومية، وتعامله مع الخطأ، ونظرته للذات والآخر.

الفرع الأول: تحفيز الضمير الأخلاقي:

المسألة الأولى: مصدر الرقابة الذاتية:

الضمير ليس مجرد صوت داخلي فطري، بل يتغذى على صورة الله التي يحملها الإنسان في وعيه، فمن يرى الله مراقباً، رحيماً، عادلاً، ينمّي لديه حسّاً داخلياً بالمحاسبة، أما من يرى الله قاسياً أو غافلاً، فإما أن يخاف دون توازن، أو يستهين بالدين.

المسألة الثانية: الأثر السلوكي للضمير الحي:

الضمير المشكَّل بتصور صحيح لله، ينتج التزاماً ذاتياً لا يحتاج إلى رقابة خارجية، فيصبح الإنسان أميناً، صادقاً، عادلاً، ليس لأنه يخاف من الشرطة، بل لأنه يستشعر رقابة الله العادلة، ورحمته التي لا تستغل.

المسألة الثالثة: تقوية الاستجابة الأخلاقية عند التعارض:

في لحظات الإغراء أو الغضب أو الشهوة، يتدخل هذا الضمير المرتبط بإله عادل رحيم، فيذكّر الإنسان بأن الله لا يُخادَع، ولا يَظلم، ولا يغفل، وبذلك يصبح هذا التصور حاجزاً نفسياً قوياً دون الوقوع في الخطأ.

الفرع الثاني: استقرار التوبة والسعي للتحسين:

المسألة الأولى: التصور الصحيح لله مصدر للأمل الحقيقي:

حين يرى الإنسان أن الله غفورٌ رحيم، لكنه في الوقت ذاته لا يغفل الحساب، يتولد لديه أمل لا يشبه التراخي، بل أمل مشفوع بالعمل، وهذا الأمل يزرع في النفس قناعة أن العودة إلى الله ممكنة في كل لحظة، وأن التوبة ليست مذلة، بل تحرر.

المسألة الثانية: كيف يمنع هذا التصور من القنوط والغرور:

من خلال التوازن بين الرحمة والعدل يحمي النفس من طرفي الإفراط، فلا يقنط الإنسان إذا كثرت ذنوبه؛ لأن الله يقبل التوبة، ولا يغتر بصلاحه؛ لأنه يعلم أن الله لا يخدع بالمظاهر.

وهذا التصور يضبط النفس، ويجعلها في حالة مراجعة دائمة دون انهيار أو كِبر.

المسألة الثالثة: الأثر العملي في حياة الإنسان:

الإنسان الذي يؤمن بإله يمهل ولا يهمل، يحب ولا يجامل، يغفر لكن لا يتغافل، يتحول تدريجياً إلى شخص يسعى إلى التحسين، لا يبرر أخطاءه ولا يهرب منها.

فتصور الله على هذا النحو ينتج "توبة نشطة"، أي توبة مستمرة تترجم إلى فعل لا إلى ندم عابر.

الفرع الثالث: تعميق المسؤولية الشخصية:

المسألة الأولى: التصور الصحيح لله يحفز الشعور بالفاعلية:

حين يفهم الإنسان أن الله يراقبه لا ليعاقبه فقط، بل ليقيّمه، ويعينه، ويجازيه، يشعر بمسؤوليته عن قراراته، فالله في التصور القرآني لا يلغي إرادة الإنسان، بل يحمّله نتائج اختياره، ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ**﴾، وهذه قاعدة نفسية تحفّز على الفعل لا على التواكل.

المسألة الثانية: الأثر النفسي للسعي والجد:

تصور الله كعادل لا يضيّع أجر العاملين يمنح الإنسان قوة داخلية للاستمرار، حتى في غياب النتائج الظاهرة، فهو لا يعمل ليرضي الناس، بل ليرضي رباً لا ينسى، ولا يجامل.

وهذا ينتج ما يعرف في علم النفس بـ "الدافعية الذاتية المستقرة"، حيث تكون البوصلة داخلية، لا خارجية.

المسألة الثالثة: من السكون إلى المبادرة:

حين يرى الإنسان أن الله لا يطلب الكمال بل الصدق، يتحرر من عقدة "إما أن أكون مثالياً أو لا أبدأ"، فيصبح أكثر جرأة في التغيير، وأكثر واقعية في التقدم؛ لأنه يعلم أن الله يبارك الخطوة، ولو كانت صغيرة.

فتصور الله بهذا الشكل ينتج فرداً مسؤولاً، مبادراً، لا ينتظر المعجزات، بل يبدأ هو بصناعة التحول.

المطلب الثالث: آثار التصور الصحيح لله على البناء الاجتماعي:

لا يقتصر أثر تصور الإنسان لله على نفسه فقط، بل يمتد إلى المجتمع الذي ينتمي إليه، فالصورة الجماعية لله تسهم في تشكيل منطق السلطة، وأسلوب التربية، وحدود العدل، وروح القانون.

وحين تكون هذه الصورة صحيحة، يصبح الدين حليفاً للعدالة، لا للظلم؛ وشريكاً في الإصلاح، لا في القمع.

الفرع الأول: مقاومة الاستبداد باسم الدين:

المسألة الأولى: تنزيه الله يمنع تأليه البشر:

عندما يفهم أن الله لا يشبه أحداً من خلقه، فلا يجوز لأحد أن يتكلم باسمه مطلقاً، ولا أن يدّعي أنه "نائب عنه" بسلطة لا تراجع.

فتصور الله كإله عادل منزه عن الصفات البشرية، يمنع تنصيب الحكام أو رجال الدين كظل للإله في الأرض.

المسألة الثانية: أثر هذا التصور في توازن السلطة والحرية:

الفرد الذي يؤمن بإله عادل لا يجامل، لا يقدّس البشر، بل يقدّس القيم، والمجتمع الذي يتبنى هذا التصور، ينتج مؤسسات قابلة للمساءلة، لا تمجَّد باسم الدين، فلا تستخدم الآيات لتبرير الاستبداد، ولا تقدَّم الطاعة للحاكم كطاعة لله.

المسألة الثالثة: الأمثلة الواقعية:

في البيئات التي يشاع فيها أن الحاكم "ظل الله"، تنتشر الطاعة العمياء، ويحرَّم النقد، أما حين يُفهم أن الله وحده الكامل، وأن كل بشر معرض للخطأ، فإن النقد يصبح واجباً دينياً، لا خروجاً على الملة.

الفرع الثاني: تعزيز العدالة والمساواة:

المسألة الأولى: الله كمرجعية عليا للعدل:

عندما يقدَّم الله في الوعي الجمعي كإله عادل لا يميّز بين الناس بحسب النسب أو اللون أو المال، بل بحسب العمل والتقوى، تنشأ ثقافة مجتمعية تقوم على المساواة، ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [الحجرات:١٣]، ليست مجرد آية، بل مبدأ تأسيسي ضد كل أشكال العنصرية والتمايز الظالم.

المسألة الثانية: الأثر الاجتماعي لهذا التصور:

في ظل هذا التصور:

١. يحترم المخالف، لأنه ليس خصماً لله، بل عبد من عباده.

٢. يعامل الإنسان بكرامته لا بمذهبه أو طبقته.

٣. تمنح الفرص على أساس الكفاءة لا القرابة أو النفوذ.

فالعدالة هنا ليست فقط قانوناً، بل شعور عام بأن الله لا يحب الظلم، وأنه أقرب إلى المظلوم من الظالم.

المسألة الثالثة: التصور الصحيح لله كدرع ضد الإقصاء:

المجتمع الذي يتبنى صورة صحيحة لله، يقاوم كل محاولة لإقصاء الآخرين باسم "الفرقة الناجية"، أو "الاحتكار الديني"، فالله – في هذا التصور – لا ينحاز إلا للحق، ولا يحتكر هدايته لفئة واحدة دون سبب.

وهذا الفهم يعزز ثقافة الحوار، والتنوع، والتسامح ضمن حدود العقيدة.

الفرع الثالث: بناء دين أخلاقي لا طقوسي:

المسألة الأولى: التصور الصحيح لله يعيد ترتيب الأولويات:

عندما يفهم أن الله لا ينظر إلى الصور بل إلى القلوب، كما جاء في الحديث، تنتقل مركزية الدين من الطقس إلى المعنى، فلا يلغى الشكل، لكن يعاد إلى موقعه الصحيح: وسيلة لا غاية.

فالصلاة مثلاً تصبح وسيلة للتقوى، لا مجرد حركات؛ والصيام مدرسة في الصدق، لا حرماناً شكلياً.

المسألة الثانية: الأثر العملي في السلوك الجماعي:

حين تسود صورة لله كإله يحب الصدق، ويكره النفاق، يصبح النفاق الديني مرفوضاً جماعياً، فيحترم الصادق حتى لو قصر، ويستهجن المرائي حتى لو كان

ملتزماً ظاهرياً، ويعاد تعريف "المتدين" باعتباره شخصاً نزيهاً، لا فقط مؤدياً للشعائر.

المسألة الثالثة: كيف يؤسس هذا التصور لدين فاعل في الحياة:

تصور الله كإله يهتم بالقيم لا بالمظاهر، ينتج ديناً قابلاً للتجديد، حيّاً في الواقع، محركاً للأخلاق، وهذا النوع من التصور يعيد الثقة في الدين لدى الشباب، ويمنع النفور الذي تسببه مظاهر التدين الجاف.

فالله – في هذا التصور – ليس شرطياً طقوسياً، بل ربّاً مربياً، يهدي الإنسان إلى الخير في الدنيا قبل الآخرة.

وبناء على ما سبق، يظهر أن التصور الصحيح لله ليس فقط مسألة عقدية، بل مسألة نفسية وسلوكية واجتماعية.

فحين يرى الإنسان أن الله منزه عن صفات البشر، جامع بين الرحمة والعدل، حكيم في قضائه، فإن هذا التصور ينتج أثراً داخلياً هادئاً، يغذي الضمير، ويعزز السلوك، ويوجّه العلاقة مع الذات والآخر.

وعلى المستوى النفسي، يحدث هذا التصور توازنا بين الخوف والرجاء، ويمنح طمأنينة لا تتولد من العقائد المجردة، بل من فهم حي لله.

وعلى المستوى السلوكي، يترجم هذا التصور إلى توبة نشطة، ومسؤولية فردية، واستقامة نابعة من القلب لا من الضغط الخارجي.

أما على المستوى الاجتماعي، فإن التصور السليم لله يقاوم الاستبداد، ويكرّس العدالة، وينتج تديناً صادقاً يعيد الدين إلى وظيفته الأخلاقية الكبرى.

وبذلك، فإن إصلاح صورة الله في وعي الإنسان المعاصر ليس ترفاً فكرياً، بل ضرورة تربوية ونفسية، ومفتاح لبناء إنسان أكثر توازناً ومجتمع أكثر عدلاً.

المبحث الرابع
عوامل تشكيل التصورات عن اللّه في المجتمع

لا يتكوَّن تصوّر الإنسان عن الإله في فراغ معرفي، ولا يبنى حصرياً على النصوص الدينية، بل يتشكّل – في كثير من الأحيان على نحو غير واعٍ – عبر تفاعلات معقّدة داخل بيئات اجتماعية وثقافية متداخلة، تشمل الأسرة، والمؤسسات التعليمية، والخطاب الديني، والإعلام، والثقافة الشعبية، وتساهم هذه العوامل مجتمعة في تشكيل صورة إلهية تستقر في الوجدان قبل أن تخضع لأي تفكير نقدي منهجي.

في هذا المبحث نتناول تلك العوامل بقدر من الصراحة والتحليل، منطلقين من فرضية أساسية مفادها أن التصوّرات الدينية المشوّهة لا تنشأ من فراغ، بل تُنتَج ويُعاد إنتاجها ضمن نسق اجتماعي وثقافي وتربوي متكامل، فالأسرة التي تربي بالخوف، والتعليم الذي يلقّن دون إقناع، والإعلام الذي يربط الإله بالعقوبة فقط، جميعها تشارك في بناء صورة ذهنية عن الله قد تبتعد كثيراً عن التصوّر القرآني المتوازن.

ويمثّل فهم هذه العوامل خطوة ضرورية في أي مشروع إصلاحي أو تربوي، لأن تغيير التصوّرات لا يبدأ من النص نفسه، بل من البيئة التي تشرحه وتوظّفه.

المطلب الأول: الأسرة:

الأسرة هي المصدر الأول الذي يتلقى فيه الطفل معلوماته الأولية عن الله، ومن خلالها قد تزرع تصورات خاطئة مبكراً يصعب تغييرها لاحقاً.

وقد جاء في الحديث النبوي: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه"(١).

فالأسرة ليست مجرد مكان لتلقي المعلومات الدينية، بل هي بيئة عاطفية واجتماعية تشكل شخصية الطفل وتؤثر على نظرته إلى العالم وإلى الله.

ومن أبرز أنماط الأسر في تشكيل صورة الله:

- الأسرة السلطوية: تصور الله كمراقب قاسٍ، يعاقب عند أقل خطأ، مما يغرس الخوف والقلق، وفي هذه البيئة، غالباً ما يكون الأب هو السلطة المطلقة، ويفرض قواعد صارمة، مما يجعل الطفل يشعر بالتهديد الدائم.

- الأسرة المتساهلة: تصور الله على أنه متساهل، يغفر كل شيء دون محاسبة، مما يغرس التواكل، وفي هذه البيئة، غالباً ما يكون الوالدان متسامحين جداً، ولا يضعان حدوداً واضحة، مما يجعل الطفل يشعر بعدم المسؤولية.

- الأسرة المتوازنة: تعلّم الأبناء أن الله رحيم وعادل، قريب ويحاسب، مما يبني علاقة صحية ومتزنة معه، وفي هذه البيئة، يكون الوالدان حازمين ورحيمين في الوقت نفسه، ويضعان حدوداً واضحة، ولكنهما أيضاً يوفران الحب والدعم.

---

(١) سنن الترمذي ج٤ ص١٥.

فالدراسات النفسية تشير إلى أن علاقة الطفل بوالديه، خاصة الأب، كثيراً ما تسقط لاحقاً على صورة الله في ذهنه، فإذا كانت علاقة الطفل بوالده متوترة أو قاسية، فقد يتصور الله على أنه غاضب أو قاسٍ، وإذا كانت علاقة الطفل بوالده دافئة ومحبة، فقد يتصور الله على أنه رحيم ومحب.

المطلب الثاني: الخطاب الديني:

المنابر والخطب والمواعظ تشكل الوعي الجمعي عن الله، لا سيما حين تغيب التربية الدينية العميقة من البيوت والمدارس، فالخطاب الديني هو وسيلة قوية لتشكيل التصورات عن الله، ويمكن أن يكون له تأثير إيجابي أو سلبي.

مظاهر الخطاب المؤثر سلباً:

- التركيز على العقاب دون الرحمة: هذا الخطاب يركز على عذاب النار وعقوبات الله، ويتجاهل صفات الرحمة والمغفرة.

- اختزال الغفران الإلهي في مظاهر الطقوس والشكليات: يروَّج في بعض الخطب لفكرة أن الغفران مشروط بأداء الطقوس والالتزام الظاهري بالشعائر[1]، دون اهتمام حقيقي بالنية أو بالبُعد الأخلاقي للسلوك.

- المبالغة في التركيز على الشفاعة كمخرج نهائي: يتبنّى بعض الخطاب الديني طرحاً يضخّم دور الشفاعة ويجعلها الضمان الأساسي للنجاة، مما يضعف الشعور بالمسؤولية الأخلاقية الفردية، ويعزز الاتكال على الوساطة بدلاً من الإصلاح الذاتي والسعي إلى التوبة الصادقة.

---

(١) كالحج أو الصيام أو الصلاة أو الأذكار.

- تصوير الله كإله قومي أو طائفي: يستخدم الخطاب لتصوير الله كمناصر لجماعة دينية أو قومية على حساب أخرى، مما يختزل البُعد الإلهي في إطار صراعات بشرية، ويحوّله إلى أداة للتبرير السياسي والطائفي.

- تقديم صورة مشوّهة عن صفات الله، كأنه كائن منفعل قد يخلف الوعد والوعيد: وهذا الخطاب يقلل من عظمة الله، ويجعله يشبه البشر في انفعالاتهم وعواطفهم.

تساهم هذه الأنماط الخطابية في إنتاج تديّن مشوَّه يغيب فيه البُعد الروحي العميق، ويختزل في طقوس شكلية أو تهديدات أُخروية، ما يحوّل الدين إلى عبء نفسي، ويضعف الوازع الأخلاقي، ويعزز الاتّكالية، ويشوّه التصوّر الإيماني السليم.

المطلب الثالث: التعليم:

المنظومة التعليمية التقليدية تكرّس صورة نمطية عن الله، غالباً دون تحليل أو نقاش، فالطفل يدرّس أن الله "يعاقب الكافرين"، و"يدخل المسلمين الجنة"، دون استحضار صفات الله الأخرى مثل العدل، الحكمة، الرأفة، أو دون ربطها بسلوك عملي.

مظاهر القصور:

- غياب التربية الإيمانية التأملية: التعليم الديني غالباً ما يركز على حفظ النصوص والمعلومات، ولا يشجع على التفكير النقدي والتأمل في معانيها.

- حضور التحفيظ القائم على التلقين والرهبة: وهذا النوع من التعليم يجعل الدين يبدو كأنه مجموعة من القواعد والطقوس التي يجب اتباعها دون فهم.

- تغييب النقاش العقلي والفهم النقدي: التعليم الديني غالباً ما يمنع النقاش والجدل، ويفرض على الطلاب قبول الأفكار والمعتقدات دون سؤال.

المطلب الرابع: الإعلام الديني:

تسهم كثير من البرامج الدينية التقليدية في ترسيخ تصوّرات سطحية ونمطية عن الله، تتكرّر عبر أنماط خطابية محدودة تعيد إنتاج مضمون ديني مشوَّه أو ناقص، ومن أبرز هذه الأنماط:

النمط الخطابي	المضمون الضار
وعظ الترهيب	اختزال صورة الله في العقوبة والنار والجحيم، مما ينتج تصوراً مرعباً ومنفّراً.
وعظ التهوين	تصوير الله بوصفه رحيماً على نحو يلغي المساءلة، ويبالغ في الشفاعة دون حدود.
الخطاب الطائفي	تقديم الله وكأنه منحاز لطائفة أو فرقة دينية ضد أخرى، مما يُكرّس الانقسام والصراع.
التصوّر الغيبي السلبي	تصوير الله كقوة بعيدة لا تتدخل، فقط تراقب أو تؤجل الحساب، مما يفصل الإيمان عن الواقع.

هذه الأنماط الإعلامية تؤثر على العامة وتزيد تشوش الصورة الدينية، خاصة في ظل غياب خطاب تربوي تصحيحي.

المطلب الخامس: الثقافة الشعبية والأساطير:

في كثير من المجتمعات، لا تتشكّل صورة الله من خلال النصوص المؤسسة وحدها، بل تتكوَّن إلى حدّ بعيد عبر الحكايات المتوارثة، والأدعية الشعبية، والروايات الشفهية، التي غالباً ما تفتقر إلى الانضباط العقدي والمعرفي، فتنتقل هذه الصور عبر الأجيال لا بوصفها نصوصاً دينية، بل كتصوّرات وجدانية مضمَرة، ومن أمثلتها:

- "الله غضب عليه فعاقبه مباشرة".
- "الله كتب عليه الزواج الشقي".
- "الله يبارك في من يرضى بالذل".
- "الله أعمى بصره فأخطأ الاختيار".

تسهم هذه التصوّرات اللاشعورية في تشكيل علاقة غير صحية مع الله، قوامها الخوف السلبي، والشعور بالذنب، والتسليم القاتل، أو حتى الرغبة في الانتقام باسم العدالة الإلهية، وبهذا، لا تشوّه فقط صورة الإله، بل تنتج أنماطاً سلوكية واجتماعية مضطربة، مثل الخنوع، والقدرية، وانعدام الفاعلية الذاتية.

إن فهم هذه العوامل المتداخلة التي تشكّل التصوّرات الدينية هو الخطوة الأولى نحو إعادة بناء علاقة متوازنة مع الله، علاقة تقوم على الوعي لا على الوراثة، وعلى الثقة لا على الخوف، ويتطلّب ذلك جهداً مشتركاً من الأسرة، والمؤسسة التعليمية، والخطاب الإعلامي، والخطاب الديني، لتقديم صورة لله تجمع بين العدل والرحمة، والقوة والحكمة، والقرب والسمو.

المبحث الخامس
أدوات تصحيح التصورات المشوهة

إن إصلاح السلوك الديني يبدأ من تصحيح "المرآة الداخلية" التي يرى الإنسان الله من خلالها، فالخلل في التصورات ينتج عنه اختلال في المشاعر، ثم في السلوك، ثم في المواقف من الآخرين والدين والحياة، لذلك فإن إصلاح التصور ليس ترفاً فكرياً، بل ضرورة تربوية ونفسية.

بعد أن تم استعراض طبيعة التصورات الخاطئة عن الله وآثارها النفسية والاجتماعية، ثم بيان ملامح التصور الصحيح وآثاره الإيجابية، يبرز سؤال محوري: كيف يمكن تصحيح تلك التصورات المشوهة؟

في هذا السياق، سنعرض في هذا المبحث مجموعة من الأدوات الفكرية، والتربوية، والنفسية، التي يمكن أن تساهم في إعادة تشكيل صورة الله في وعي الإنسان، أدوات تجمع بين أصول التربية الإيمانية وعلوم النفس والاجتماع الحديثة، مع التركيز على قابليتها للتطبيق في الواقع التربوي والدعوي المعاصر، بما يعيد للعقيدة دورها الجوهري في بناء النفس والمجتمع.

المطلب الأول: العقل التأملي وتفعيل الوعي:

العقل هو الأداة الكبرى التي جعلها الله مناط التكليف، فلا يفهم الإيمان إلا عبره، ولا يعرف الله حقاً إلا به، فالإيمان الحقيقي ليس مجرد تقليد أعمى، بل هو قناعة راسخة تستند إلى التفكر والتأمل.

قال تعالى في كثير من الآيات: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾، ﴿**لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾، ﴿**أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾، وفي الحديث الشريف: "قِوَامُ الْمُرْءِ عَقْلُهُ وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ"(١).

غير أن وظيفة العقل لا تكتمل بالمنطق المجرد فقط، بل بوعيه الأخلاقي، وقدرته على التفكيك والتأمل، ومراجعة التصورات الدينية التي يتم تمريرها تحت غطاء الوراثة أو القداسة.

الفرع الأول: إعادة الاعتبار للأسئلة الوجودية وتحريرها من الوصاية:

ينبغي إعادة الاعتبار للأسئلة الوجودية الكبرى (عن الله، الغاية، المصير، الجنة، النار)، وتحريرها من الوصاية الدينية والاجتماعية، التي غالباً ما تعامل هذه الأسئلة بريبة أو تجريم، فيتهم السائل بالشك أو الانحراف، رغم أن هذه التساؤلات علامة على يقظة فكرية، لا خلل في الإيمان.

بل إن القرآن نفسه يطرح هذه الأسئلة لتحفيز التفكر، كما في قوله تعالى: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾[الطور:٣٥]، ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾[المؤمنون:١١٥]، وهذا يعني أن السؤال عن الخلق والمعنى والرجوع إلى الله، ليس فقط مقبولاً، بل مقصوداً لتحريك العقل.

ومن هنا، على المؤسسات التربوية أن تتبنى حوارات مفتوحة، تشجّع على طرح هذه الأسئلة، ويجاب عنها بمنهجية عقلية وأخلاقية، لا بالزجر أو القمع.

---

(١) مسند الحارث ج٢ص٨٠٣.

الفرع الثاني: تعليم قراءة النصوص بتأمل لا بتلقين:

من أخطر ما تواجهه التربية الدينية اليوم هو اختزال النصوص في الحفظ والتكرار، دون تدبر أو تأمل، فالقرآن لم ينزل ليلقّن، بل ليفهم ويعمل به، قال تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ**﴾[ص:٢٩]، ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[محمد:٢٤]، والتدبر يتطلب أدوات: فهم السياق، اللغة، المقاصد، قواعد التأويل.

لأن الوقوف عند ظاهر النص فقط قد يؤدي إلى تصورات خاطئة عن الله، كتشبيهه بالمخلوق، أو تصوره كإله متسلط، بينما النص ذاته أوسع وأعمق من هذه التصورات الضيقة.

الفرع الثالث: دعم التفكير النقدي في الخطاب الديني والمذهبي:

التفكير النقدي ليس خصومة مع الدين، بل صيانة له من التحجر والانغلاق، فالمتعلم يجب أن يُدرَّب على أن يسأل: "لماذا نؤمن بهذا؟ ما الدليل؟ هل يتسق هذا مع العدل الإلهي؟".

والقرآن ذمّ التقليد الأعمى، ولو باسم الدين، فقال: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾[البقرة:١٧٠]، وفرّق بين الوحي الإلهي والتفسير البشري، لأن كثيراً من الانحرافات جاءت من التأويل، لا من النص، ويشير إلى أن غياب النقد والتفكر كان سبب الهلاك: ﴿**قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾[الملك:١٠].

الفرع الرابع: تصحيح الفهم الشائع: (الإيمان ضد العقل):

من الأخطاء التربوية الكبرى تصوير الإيمان وكأنه يتطلب تعليق العقل، بينما القرآن يجعل التفكر طريقاً للإيمان، لا ضده، قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾[آل عمران: ١٩٠]، ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟**﴾ - ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ - ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ مكررة في مواضع عدة، بل إن غياب العقل عدّه القرآن شراً: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ**﴾[الأنفال:٢٢].

موانع تفعيل العقل التي يجب معالجتها:

- الخوف من الاتهام بالضلال أو الزندقة.
- الخطاب الديني الذي يجرّم التفكير.
- البيئة الاجتماعية التي تساوي بين السؤال والكفر.
- سلطة دينية غير مؤهلة تحتكر الفهم وتجرّم النقد.

فتفعيل العقل ليس ترفاً فكرياً، بل ضرورة دينية وتربوية لمواجهة التصورات المشوّهة عن الله والدين.

فالعقل – إن فُعّل تأملياً وأخلاقياً – ينتج إيماناً ناضجاً لا هشاً، ويحصّن النفس من الانجراف وراء التصورات الخاطئة التي تسببت في اضطرابات نفسية، أو تبلد ديني، أو نفور من الإيمان.

والمجتمعات لا تنهض إلا حين يستعاد للعقل دوره، لا كأداة جدل، بل كوسيلة هداية وميزان للمعنى.

المطلب الثاني: الإرشاد النفسي الديني (Religious Counseling):

أثبتت الدراسات النفسية والدينية الحديثة أن العلاقة مع الله – كما يتصورها الفرد – ترتبط ارتباطاً مباشراً بصحته النفسية، وشعوره بالطمأنينة، وسلوكه الأخلاقي والديني[١]، وعليه، فإن التصورات المشوّهة عن الله، والتي تم تفصيلها في المبحث الأول من هذا البحث، لا تُعالج فقط بالبيان العقدي أو النَقل الفقهي، بل تتطلب مرافقة نفسية روحية متخصصة، تعيد بناء الصورة الإيمانية على أسس صحية ومتوازنة.

وهنا يبرز دور الإرشاد النفسي الديني كأداة أساسية في التصحيح العلاجي.

والمقصود بالإرشاد النفسي الديني: هو الجمع بين أدوات العلاج النفسي الإكلينيكي، وفهم دقيق للتجربة الإيمانية، بهدف معالجة الانحرافات الشعورية والعقلية التي شوهت العلاقة بالله تعالى.

وفيما يلي بيان لكيفية تعامل هذا النمط من الإرشاد مع أبرز التصورات المشوهة التي ناقشها البحث:

الفرع الأول: تشبيه الله بالمخلوقين (الإسقاط والتجسيم):

حين يرى الفرد الله كما يرى والده أو حاكماً بشرياً (غاضباً، متقلباً، متسلطاً)، فالمشكلة ليست فقهية بل إسقاط نفسي، وهي تحتاج إلى:

---

(١) علم نفس الدين: مدخل تجريبي ص١٠١.

- جلسات كشف التصور (God Image Interview): تستخرج فيها هذه الصور من اللاوعي، وتفكك لغوياً وعاطفياً.

- إعادة بناء الصورة الإلهية ككيان متعالٍ غير محدود، لا يقارن بمخلوق.

- علاج الجذر الأسري إذا ثبت أن أصل المشكلة هو علاقة مَرَضية مع الأب أو السلطة.

الفرع الثاني: تصور الله كإله قاسٍ أو ظالم أو منتقم:

حين يشعر الإنسان بأن الله لا يحبّه، أو يضله بلا سبب، أو يخلق الكفار ليعذبهم، فالمشكلة هنا ليست مجرد "سوء فهم آية"، بل أزمة ثقة روحية عميقة.

يستخدم هنا علاج التوازن بين صفات الله (الرحمة، العدل، الحكمة، اللطف)، دون تغليب طرف على طرف.

ويمارس ما يسمى بـ Inner Healing، أي: ترميم العلاقة مع الله من خلال مداواة الجرح العاطفي الذي أفسدها.

الفرع الثالث: تصور الجبر ونفي الإرادة الإنسانية:

هذا التصور ينتج عجزاً نفسياً واكتئاباً دينياً، ويقتنع صاحبه أن جهده لا يغيّر شيئاً، مما يفقده الدافعية.

ويعالج من خلال تقنيات استعادة الفاعلية الشخصية (Agency Restoration)، وربط المشيئة الإلهية بالمسؤولية الأخلاقية.

ويعيد بناء العلاقة مع القدر كعلم سابق لا كقيد حتمي.

الفرع الرابع: تصور الله كإله متساهل لا يعاقب:

ينشأ عند من يستسهل الذنب ويطمئن نفسه بمقولات مثل: "الله غفور مهما فعلت"، أو "النية تكفي".

يستخدم هنا العلاج بالاتزان العقدي، ليفهم أن الرحمة مشروطة، والعدالة مرافقة لها.

ويواجه هذا التصور بالتحليل النفسي لما يُعرف بـ "آلية التبرير الدفاعي"، حيث ينتج الفرد وهماً يسكِّن به ضميره لا أكثر.

الفرع الخامس: الاعتماد على الشفاعة كضمان أخروي:

يرتبط هذا التصور بـ الحاجة النفسية للشعور بالأمان دون مجاهدة، مما ينتج التواكل والركون للرموز الدينية دون سعي.

والإرشاد يعالج ذلك بتقنية تحمّل المسؤولية الروحية، وبيان أن الشفاعة لا تمنح إلا لمن استحقها، لا لمن تهرّب من التوبة.

الفرع السادس: تصور انفصال العمل عن الجزاء:

وهو التصور الذي يجعل صاحبه يتساءل: "ما فائدة الالتزام إذا لم يكافأ؟" أو: "لماذا يعيش الفاسدون بسعادة؟".

ويعالج بتقنية Meaning Rebuilding Therapy، لإعادة المعنى للفعل الأخلاقي، مع بيان أن الثواب قد يتأخر لكنه لا يلغى.

ويركز على الجزاء النفسي والروحي في الدنيا كأثر مباشر للسلوك الصادق.

الفرع السابع: تصغير العقوبة الأخروية:

يرتبط هذا التصور غالباً بـ آليات نفسية دفاعية تهدف إلى التخفيف من القلق الأخروي، عبر تسويغ الذنب: "حتى لو دخلت النار سأخرج منها".

ويستخدم هنا مفهوم الخوف الناضج، وليس الرعب المشوّه.

ويعاد بناء صورة العذاب كأمر خطير وجاد، لا مرحلة عابرة.

الفرع الثامن: التمييز بين الضمير المرضي والإحساس النبيل بالذنب:

العديد من المتدينين يخلطون بين الإحساس الأخلاقي السليم، وبين الذنب المرضي الذي ينتج الوسواس والتشدد والتكفير الذاتي.

ويعمل الإرشاد هنا على إعادة برمجة الضمير، من ضمير يتغذى على جلد الذات، إلى ضمير يوجّه لا يدمّر.

وبناء على ما سبق، فالإرشاد النفسي الديني لا يكمل فقط ما بدأته التربية العقدية، بل يعالج ما فشلت فيه.

فحين تتشوّه صورة الله في قلب الإنسان، فإن أول ما ينهار هو الشعور بالأمان، ثم الضمير، ثم العلاقة بالدين نفسه.

والطريق إلى التصحيح لا يكون عبر التوبيخ، بل عبر الاستبصار، والتفهم، وإعادة البناء من الداخل.

المطلب الثالث: مراجعة الخطاب الديني والإعلامي:

تصحيح التصورات عن الله لا يتم بدون مراجعة جذرية للخطاب الديني العام في المساجد والمنابر والمناهج الدينية والإعلام، فالخطاب الديني والإعلامي لهما تأثير

كبير على تشكيل التصورات عن الله، ويجب أن يكونا مسؤولين عن تقديم صورة صحيحة ومتوازنة عنه.

الفرع الأول: القرآن كمصدر أول:

يجب أن يُستقى الخطاب من الآيات المحكمة، لا من الموروث الشعبي أو العاطفي، فالقرآن الكريم يوازن بدقة بين الرحمة والعدل: ﴿**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ**﴾[الحجر:٥٠].

الفرع الثاني: التنزيه الواضح:

يجب أن يُؤكَّد دوماً على أن الله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[الشورى:١١]، ولا يشبه المخلوقين، ولا يسقط عليه نموذج بشري.

الفرع الثالث: تفكيك التصورات الخاطئة صراحة:

مثلاً: يجب أن يُقال بوضوح إن الشفاعة لا تلغي الحساب، وإن الجبر مرفوض شرعاً، وإن العدالة الإلهية لا تفصل العمل عن الجزاء.

الفرع الرابع: معالجة الأسئلة العقدية بلغة عقلية ونفسية لا تخويفية:

الخطاب يجب أن يتضمن مسائل مثل: "هل يُضلّ الله من يشاء؟" لا أن يوقف السائل، بل يوضح السياق، ويستوعب الحاجة النفسية وراء السؤال.

الفرع الخامس: تحرير صورة الله من الخطاب السياسي الملوَّث:

يجب كسر الارتباط بين "الطاعة للحاكم" و"الطاعة لله" حين تستغل لتبرير الظلم، فالله لا يفوّض أحداً للظلم باسمه.

وبناء على ما سبق، فإن مراجعة الخطاب الديني والإعلامي ليست قضية شكلية، بل أصل في بناء صورة الله لدى الأفراد والمجتمعات.

فإذا شُوِّه هذا الخطاب، تشوّه التصور، واختل الإيمان، وضاعت بوصلة الدين، والتصحيح يبدأ حين يعود الخطاب إلى القرآن، ويخرج من قبضة التسييس والعاطفة والانغلاق، إلى فضاء الرحمة، والعدل، والاتزان.

المطلب الرابع: تعزيز التربية الإيمانية التأملية:

إن الخلل في تصور الإنسان لله لا يعود فقط إلى مفاهيم خاطئة، بل إلى ضعف في التربية الإيمانية ذات الطابع الشعوري التأملي، فالتلقين الجاف، والخطاب القائم على التهديد، وتغييب الأسئلة الوجودية، كلها عوامل تنتج إيماناً سطحياً هشاً، يفضي إلى الوسواس أو النفور أو الجفاء.

ومن هنا، يصبح من الضروري تبني منهج تأملي وجداني في التربية العقدية يعيد تشكيل العلاقة بالله على أسس من الفهم العميق، والتجربة الشعورية، والانفتاح الروحي، لا مجرد الحفظ والامتثال القسري.

أهداف التربية الإيمانية التأملية:

- بناء تصور وجداني متّزن لله يجمع بين الجلال والجمال.
- تعويض النقص العاطفي والوجداني في الخطاب الديني التقليدي.
- معالجة آثار التصورات المشوَّهة لله (الجبر، القسوة، الغموض...).
- دعم النفس المتدينة نفسياً وروحياً ضد القلق والاضطراب.

عناصر التربية التأملية:

الفرع الأول: تدريس أسماء الله الحسنى من منظور نفسي- تربوي:

الانتقال من الحفظ العددي إلى التفاعل الشعوري: يجب أن يتم تدريس أسماء الله الحسنى بطريقة تجعلها ذات معنى في حياة الأفراد، وأن تربطها بتجاربهم العاطفية والاجتماعية، (مثل "السلام" مع القلق، "الحكيم" مع التساؤلات، "الرحيم" مع الذنب...).

أمثلة عملية: جلسات تفاعلية يتأمل فيها المشاركون في أثر أسماء الله على تجاربهم الشخصية اليومية (مثل كيف يشعر العبد بصفة "اللطيف" في لحظات الكرب، أو "الشكور" عند تقدير الجهد البسيط)، أو استخدام قصص واقعية أو سيرة الأنبياء لربط الأسماء الإلهية بالسلوك العملي (مثلاً: اسم "الحكيم" في قصة يوسف عليه السلام، أو "الغفور" في توبة داود).

الفرع الثاني: تخصيص حلقات شبابية بعنوان: "من هو الله الذي نعبده؟":

طرح الأسئلة المحرجة دون تخويف: "هل الله يحبني؟ لماذا لم يستجب دعائي؟ هل الجحيم عادل؟".

إشراك متخصصين نفسيين ودينيين في الإشراف لضمان التوازن بين الانفتاح والضبط العقدي.

هذه الحلقات تهدف إلى تشجيع الشباب على التفكير في طبيعة الله، وطرح الأسئلة الصعبة، والبحث عن إجابات مقنعة.

الفرع الثالث: إدخال مادة "الصحة الإيمانية" في برامج التكوين الديني والدعوي:

مفهوم الصحة الإيمانية: هي قدرة المتدين على العيش بإيمان متزن، لا وسواسي ولا استعراضي.

محاور المادة: الفرق بين الوسوسة والخشية، التعامل مع الشكوك، مهارات دعم النفس المؤمنة في الأزمات.

تهدف هذه المادة إلى تعليم الدعاة والمربين كيفية التعامل مع المشكلات النفسية التي قد تواجه المتدينين، وكيفية تقديم الدعم النفسي لهم.

الفرع الرابع: ممارسة الدعاء والتأمل والعبادة بوصفها تجربة وجدانية لا واجباً ميكانيكياً:

- التأكيد على "ذوق العبادة" لا مجرد فعلها.

- يجب أن يشجع الناس على ممارسة العبادات بطريقة تجعلها تجربة وجدانية عميقة، وليست مجرد واجب ميكانيكي.

- نقد فكرة "العبادة السريعة" أو "الكمّ العددي" لصالح الكيف النوعي.

التصور السليم لله لا يبنى بالخوف وحده، ولا بالرجاء المعزول، بل بتجربة إيمانية داخلية ناضجة، تعيد الإنسان إلى الإله، لا بوصفه قوة غيبية فقط، بل كمعنى ينعكس في النفس والسلوك والوجدان.

والتربية الإيمانية التأملية ليست رفاهية تربوية، بل ضرورة علاجية لعصر منهك بالقلق والتشويه العقدي.

المطلب الخامس: دور النماذج التربوية الواعية:

المربين والدعاة والأئمة هم المرآة التي تنعكس من خلالها صورة الله، ولذلك فإن أي خلل في صورتهم، أو تناقض بين أقوالهم وسلوكهم، يفسد التصور الإيماني للمستمع.

الفرع الأول: أن يكون قدوة في الرحمة، العدل، الصدق، والاتزان:

يجب أن يكون المربي قدوة حسنة في جميع جوانب حياته، وأن يجسد صفات الله الفعلية في سلوكه.

الفرع الثاني: أن يحرص على تصحيح الصور المشوهة دون تسطيح أو هجومية:

يجب أن يكون المربي قادراً على تصحيح التصورات المشوهة عن الله بطريقة لطيفة ومحترمة، دون تسطيح أو هجومية.

الفرع الثالث: أن يظهر وجه الله الرحيم الحكيم في جميع الأحوال:

يجب أن يظهر المربي وجه الله الرحيم الحكيم في جميع الأحوال، وأن يذكر الناس برحمة الله وعفوه.

الفرع الرابع: أن يعلّم الناس كيف يرون الله في تفاصيل الحياة، لا فقط في أوقات المحن أو العقوبات:

يجب أن يعلم المربي الناس كيف يرون الله في تفاصيل الحياة اليومية، وأن لا يقتصروا على رؤيته في أوقات المحن أو العقوبات.

إن تطبيق هذا البرنامج التربوي – النفسي المتكامل يتطلب تضافر جهود جميع الأطراف المعنية، من الأسر والمدارس والإعلام والمساجد والمراكز الإرشادية.

فالهدف هو بناء جيل واعٍ ومسؤول، يحمل صورة صحيحة عن الله، ويعيش حياة سعيدة وهادفة.

الخاتمــة

خلص هذا البحث إلى أن "تصور الإنسان عن الله" ليس مجرد مسألة عقدية نظرية، بل هو عنصر بنيوي في تشكيل الصحة النفسية للفرد والبنية الأخلاقية للمجتمع، وقد أظهرت الدراسة – من خلال التحليل النفسي والاجتماعي – أن التصورات المشوهة عن الله، سواء كانت تصوراً قاسياً أو متساهلاً أو جبرياً أو مجسماً، تؤدي إلى اختلالات جوهرية في السلوك الفردي، من قبيل الخوف المرضي أو التواكل أو التبرير الأخلاقي للمعصية، كما أن لها آثاراً مدمرة على المستوى الاجتماعي، حيث تسهم في شرعنة الاستبداد، وتفريغ الدين من مضمونه الأخلاقي، وخلق بيئة خصبة للتمييز والعنف باسم العقيدة.

ومن أبرز النتائج التي توصل إليها البحث:

١- أن التصور الخاطئ لله يؤدي إلى اضطرابات نفسية شائعة مثل الوسواس القهري الديني، وفقدان المعنى، والاكتئاب الروحي.

٢- أن الفهم المشوه لمفهوم الجبر والشفاعة والعقاب الأخروي ينتج أنماطاً من التدين السلبي القائم على التبرير والتراخي والتناقض السلوكي.

٣- أن الصورة السلبية عن الله تستخدم كأداة أيديولوجية لتبرير الطغيان السياسي، وقمع الآخر، وتكريس التفاوت الاجتماعي باسم الدين.

٤- أن الخلل في صورة الإله ينتج ديناً بلا ضمير، وشعائر بلا أخلاق، ومجتمعاً بلا مسؤولية.

وبناء على ما سبق، يوصي البحث بما يلي:

أولاً: توصيات تربوية وتعليمية:

١- إدماج موضوع "تنزيه الله وتصحيح صورته" في المناهج الدينية منذ مراحل التعليم المبكرة، مع التركيز على صفات الرحمة والعدل والحكمة.

٢- تدريب المعلمين والدعاة على تفكيك التصورات الخاطئة عن الله، وتحويل الخطاب الديني من التلقين إلى الحوار النقدي التربوي.

ثانياً: توصيات نفسية واجتماعية:

١- تطوير برامج علاجية نفسية تعالج القلق الديني الناجم عن صور الإله المشوهة، خصوصاً في حالات الوسواس القهري والتدين القهري.

٢- تعزيز ثقافة المسؤولية الفردية من خلال خطاب ديني يوازن بين القدر والإرادة، وبين الرجاء والخوف، وبين الحب لله والخشية منه.

ثالثاً: توصيات فكرية وإصلاحية:

١- إعادة قراءة النصوص الدينية المتعلقة بالعقاب والشفاعة والهداية ضمن سياقها الكامل، مع التنبيه على ضرورة الجمع بين العقل والنص.

٢- محاربة التوظيف السياسي لصورة الله عبر التوعية بضرورة الفصل بين الدين والسلطة الاستبدادية، وتأكيد أن لا أحد يملك تفويضاً إلهياً مطلقاً.

وبهذا، فإن إصلاح تصور الإنسان عن الله ليس ترفاً عقدياً، بل ضرورة وجودية لإعادة بناء الإنسان أخلاقياً ونفسياً واجتماعياً، فالإيمان، لكي يكون محركاً للضمير

وسنداً للكرامة، لا بد أن ينبع من صورة الله تتسم بالرحمة، لا الرعب، وبالعدل، لا التحيز، وبالحكمة، لا العبث.

الفهرس

المقدمة ٥

مفهوم التصورات الدينية عن الله وأنواعها ٧

المطلب الأول: معنى تصور الإنسان عن الله: ٧

المطلب الثاني: أهمية التصور الصحيح عن الله: ٩

المطلب الثالث: أنواع التصورات الخاطئة الشائعة عن الله: ١٠

الفرع الأول: الإله القاسي: ١٠

الفرع الثاني: الإله المتساهل: ١١

الفرع الثالث: الإله الشبيه بالإنسان (التجسيم): ١٢

الفرع الرابع: الإله البعيد: ١٢

الفرع الخامس: الإله السياسي: ١٣

التصور الخاطئ لله وآثاره النفسية والاجتماعية ١٥

المطلب الأول: أوجه التصور الخاطئ لله وآثارها النفسية: ١٦

الفرع الأول: تشبيه الله بالمخلوقين (التجسيم والتمثيل): ١٦

الفرع الثاني: تصور الله كإله متساهل لا يعاقب: ٢٠

الفرع الثالث: تصور الجبر ونفي الإرادة الإنسانية: ٢٤

الفرع الرابع: الفصل بين العمل والجزاء: ٢٩

الفرع الخامس: تصور الله كإله ظالم أو محب للكفر: ٣٣

الفرع السادس: الاعتماد على الشفاعة كمبرر للتقاعس: ٣٧

الفرع السابع: تصغير العقوبة الأخروية: ٤٢

المطلب الثاني: آثار التصور الخاطئ لله على البناء والسلوك الاجتماعي: ٤٦

الفرع الأول: شرعنة الاستبداد السياسي والديني: ٤٦

الفرع الثاني: تفريغ الدين من الوظيفة الأخلاقية: ٤٩

الفرع الثالث: ثقافة التواكل واللامسؤولية المجتمعية: ٥٢

الفرع الرابع: انهيار قيمة العمل والكفاءة: ٥٥

الفرع الخامس: نزع الشرعية عن "الآخر": ٥٨

الفرع السادس: تطبيع الوساطة والفساد المؤسسي: ٦١

الفرع السابع: تراجع المحاسبة المجتمعية: ٦٤

التصور الصحيح لله وآثاره النفسية والاجتماعية ٦٨

المطلب الأول: ملامح التصور الصحيح لله وأثرها في النفس: ٦٩

المطلب الثاني: آثار التصور الصحيح لله على السلوك الفردي: ٧٢

المطلب الثالث: آثار التصور الصحيح لله على البناء الاجتماعي: ٧٥

عوامل تشكيل التصورات عن الله في المجتمع ٨٠

المطلب الأول: الأسرة: ٨١

المطلب الثاني: الخطاب الديني: ٨٢

المطلب الثالث: التعليم: ٨٣
المطلب الرابع: الإعلام الديني: ٨٤
المطلب الخامس: الثقافة الشعبية والأساطير: ٨٥
أدوات تصحيح التصورات المشوهة ٨٦
المطلب الأول: العقل التأملي وتفعيل الوعي: ٨٦
المطلب الثاني: الإرشاد النفسي الديني (RELIGIOUS COUNSELING): ٩٠
المطلب الثالث: مراجعة الخطاب الديني والإعلامي: ٩٣
المطلب الرابع: تعزيز التربية الإيمانية التأملية: ٩٥
المطلب الخامس: دور النماذج التربوية الواعية: ٩٨
الخاتمة ١٠٠
الفهرس ١٠٣